الاستفهام فى الحديث النبوى

د. فاطمة الزهراء محمد سعاد جلال[1]

الحديث النبوى قمة شامخة فى البلاغة وقوة البيان، حفلت لغته بمادة لغوية غزيرة، وأساليب بيانية عديدة، وصور بلاغية جديدة، ولا غرابة فى ذلك إذ أن قوله صلى الله عليه وسلم: "أوتيت جوامع الكلم"، وقوله: "أنا أفصح العرب بيد أنى من قريش". تصريح جميل لريادته لبلاغة الكلام. وفصاحته، لذلك كانت لغته وما تزال حجة فى الفصاحة، وأنموذجاً فى البلاغة ومن معينها نهل أهل اللغة والأدب وهى المفزع الذى يستظل بحماه أهل التفسير وإليه ينزع علماء العربية فى شد أزر شواهدهم ودعم ما يذهبون إليه من صحة وسلامة فى اللغة[2].

عَلِم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها فى منزع بلاغتها، حتى قال له على ابن أبى طالب -كرم الله وجه- حين سمعه يخاطب وفد بنى نهد: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره! قال: "أدبنى ربى فأحسن تأديبى وربيت فى بنى سعد". فكان يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، كلا منهم بما يفهمونه ويحادثهم بما يعلمون، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم"[3].

ووصف الجاحظ كلامه صلى الله عليه وسلم: "بأنه لم يسمع الناس بكلام أعظم نفعا، ولا أصدق لفظا، ولا أعدل وزنا، ولا أجمل مذهبا، ولا

---

(١) مدرس بقسم اللغة العربية، كلية الآداب جامعة حلوان.

(٢) محمد الخضر حسين، دراسات فى العربية وتاريخها، مكتبة الفتح، المكتب الإسلامى، ١٩٦٢، ص١٦٦.

(٣) ابن الأثير الجزري، النهاية فى غريب الحديث، دار الفكر، جـ٢، ١٩٧٩، المقدمة، جـ١/٤.

أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه، ولا أبين في فحواه من كلامه صلى الله عليه وسلم"[١]. وذلك بما أوتي من مقدرة على تنويع وسائل الخطاب وأساليب التعبير. فعندما يوجه كلامه إلى المخاطبين يدرك أنهم يختلفون في عقولهم، وأفهامهم، وأعمارهم وثقافاتهم ولهجاتهم، ولذلك نوع في أسلوبه معهم ما بين قسَم. وتأكيد، واستفهام، وشرط، وأمر ونهي، ووعد ووعيد، وعرض الحديث في صورة حوار، وأقصوصة، وتشبيه، وتمثيل، كما حرص على التكرار تارة، وعلى الإيجاز أخرى.

واستعمل الإشارة، والحركة، والرسم، كما استخدم مفردات البيئة، كالحصى، والرمل، والعسب، لتقريب الحقائق التي يطرحها عليهم، ويعمق التواصل بينه وبينهم، وأشعارهم بالإيناس لما يوجهه إليهم من أمور عقلية.

والاستفهام من أهم أساليب التعبير التي يسرت على الرسول صلى الله عليه وسلم - إدخال كثير من المعاني التي كان يجهلها العرف في ذلك الوقت: "إذ كان للعرب تصرف واتساع في اللغة بالمجاز والاشتقاق وانتزاع لفظ من لفظ، أو ابتداع معنى من معنى أو اختراع فكرة من فكرة فإن ذلك كله في حدود الموجود المتعارف، بخلاف المأثور عنه صلى الله عليه وسلم- ففيه الكثير مما لم يسبقه إليه عربي.. ومن ألفاظه صلى الله عليه وسلم- ألفاظ كان العرب أنفسهم يسألونه عنها ويعجبون لانفراده بها، وهم عرب مثله، كما عجبوا لفصاحته التي اختص بها، وهو باق بين أظهرهم لم يفارقهم، ولم ينتقل عن بلدهم"[٢]. مما دفعهم إلى سؤاله عن العديد منها، ومن

---

(١) عمرو بن بحر الحاحظ، البيان والتبين، تحقيق: د.درويش هويدى، بيروت، المكتبة العصرية، ط٢/٢٠٠٠، جـ٢/٢٤٥.

(٢) محمد عبد المنعم خفاجه، الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط ثالثة، ١٩٨٤م، ص١٥.

ذلك ما روى عنه -صلى الله عليه وسلم- أنه قال لأبى تميمة إياك والمخيلة فقال يا رسول الله: نحن قوم عرب، فما المخيلة؟ قال -صلى الله عليه وسلم: سبل الازار، أى الكبر.. فقول أبى تميمة نحن قوم عرب دلالة على أن النبى -صلى الله عليه وسلم- اخترع هذا اللفظ اختراعاً لم يسبق إليه[١].

ويكثر الاستفهام فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم، ويرجع ذلك إلى أن الأحاديث بعضها صادر من الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعضها صادر من المخاطبين، مما أعطى ثراءً فى الأسلوب والتعبير لموضوع الاستفهام فى الحديث النبوي، بوصفه أسرع الوسائل التى تلفت نظر المخاطبين، وتشد انتباههم، وتثير فضولهم، ولاسيما إذا كان الاستفهام عن شئ يظن المخاطبون أنه معروف لديهم ولا يحتاج للاستفهام، أو إذا أن ما يسألون عنه غريباً لفظه على أسماعهم ولم يعرفوه من قبل -كما أشرنا آنفاً-.

وعنى العلماء قديماً بدراسة أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم ولذلك تحتفى المؤلفات اللغوية والبلاغية[٢] بالاستدلال بالشواهد القرآنية فى أبواب الاستفهام وأدواته، وأغراضه وتكررها وتسهب فى شرحها.

كما قامت حديثاً بعض الدراسات لأساليب الاستفهام فى القرآن الكريم كالتى قدمها أ.عبد العليم فوده تحت نفس العنوان "أساليب الاستفهام فى القرآن الكريم" وهى دراسة رائدة فى بابها، بينما لم يحظ الاستفهام فى

---

(١) المرجع السابق.

(٢) انظر الاستفهام وأدواته فى الكتاب لسيبويه، جـ٢، ٣؛ مغنى اللبيب لابن هشام، جـ١، الصاحبي فى فقه اللغة، أحمد بن فارس، المقتضب للمبرد، جـ٣، الطراز للعلوى، الفوائد المشوق لابن قيم الجوزية، الخصائص لابن جني، جـ٢، الاتقان للسيوطى، جـ٢، مفتاح العلوم للسكاكي، الإيضاح فى علوم البلاغة للقزوينى، البرهان فى علوم القرآن، للزركشى، جـ٢، دلائل الإعجاز للجرجاني.

الحديث النبوى بدراسة مستقلة وأن تعرضت بعض الدراسات له بإيجاز كما جاء فى دراسة د.عودة خليل "بناء الجملة فى الحديث النبوى" وهى دراسة لغوية لتراكيب الجملة فى الأحاديث النبوية.

وهناك دراسة أخرى بعنوان "الحديث النبوى من الوجهة البلاغية" وهى دراسة بلاغية شاملة للأحاديث النبوية. وبيان الفنون البلاغية فيها واعتمد فى جمعه للأحاديث على تيسير الوصول، والجامع الصغير وكتب الغريب وكان للاستفهام نصيباً من هذه الدراسة[1]. مما حفزنى لمتابعة هذا الموضوع والتشوق إليه.

ولاسيما أن الاستفهام فى الحديث النبوى باب متعدد المصادر فهناك الاستفهام من الصحابة، وآل البيت، وأهل الكتاب للرسول -صلى الله عليه وسلم- وهناك الاستفهام من الرسول -صلى الله عليه وسلم- للمخاطبين ويختلف طبيعة سؤال المخاطبين للرسول عن سؤال الرسول -صلى الله عليه وسلم- للخاطبين واستبعدنا من الدراسة الاستفهام الصادر من المخاطبين للرسول -صلى الله عليه وسلم- إلا ما جاء عرضا فى سياق الحديث واقتصرت على الاستفهام الصادر من الرسول -صلى الله عليه وسلم- للمخاطبين، لأنه يحقق ما تهدف إليه الدراسة من بيان لكيفية توظيف الرسول -صلى الله عليه وسلم- لأسلوب الاستفهام فى إيضاح تعاليم الإسلام وقيمه وأهدافه بصورة ميسرة، وبيان دلالة أدوات الاستفهام التى استعملها الرسول فى أحاديثه الموجه للمخاطبين وكيف كان الاستفهام يخدم النص الحديثى ويوضحه للمخاطبين كما أنها تكشف عن ذاتية الرسول وخصوصيته فى استعمال هذه الأدوات فى بعض الأحيان، واقتصرت فى

---

(1) وقد أطلعت على هذه الدراسة واستئنست بها فى دراستى، كما أفدت إفادة جمة من دراسة بلاغية نقدية قيمة بعنوان "أساليب الاستفهام فى الشعر الجاهلى" للدكتور/ حسنى عبد الجليل.

جمع الأحاديث على صحيح مسلم بوصفه أحد الصحيحين اللذين يلتزمانأعلى مراتب الصحة. كما أنه أورد الأحاديث تامة مرتبة صحيحة الإسناد حسب الموضوعات كل فى بابه مما يسر مهمة جمع الأحاديث التى بها الاستفهام.

ويجدر الإشارة إلى أنه لا ينبغى أن نغفل الدور البلاغى لأسلوب الاستفهام. وكما أن الاهتمام بالتركيب الاستفهامى للجملة يشكل ركيزة مهمة فى الدراسة لأن الاستفهام ليس حالة طارئة على التركيب، بل هو داخل فى نسيجه متفاعل معه، وليس دلالات جملة الاستفهام قاصرة على نوع أداة الاستفهام، أو على نوع عناصره، وطريقة ترتيبها، إنما هى مرتبطة بذلك كله ومتولدة عنه"[١]. ومن هنا يتشابك التحليل البلاغى واللغوى فى دراستنا، ليساعد على اكتمال الرؤيا واتضاحها لفهم السياق الذى يدور فيه الاستفهام. ولذا أوردنا الأحاديث كاملة ولم نقتصر على جملة الاستفهام لأنه يصعب أن ننتزع أسلوب الاستفهام من سياقه فهو جزء أصيل من بنية الحديث ولا يمكن أن يفهم الاستفهام مجرد من سياق الجملة؛ "ومن المعروف أن بعض مواقع الاستفهام لا تفصح إفصاحاً واضحاً عن المراد به إلا بمراجعة سياق أطول"[٢].

فالحديث النبوى يمثل وحدة أدبية مستقلة متجانسة الصياغة والتركيب، مكتملة الموضوع له رسالة محددة وفى ضوء هذا المفهوم أتناول الاستفهام فى الحديث النبوى.

ولم اعتمد فى تقسيمى للمباحث على وحدة الموضوع؛ لتعددها وتباينها، ولا على وحدة أدوات الاستفهام؛ لأن هذا قد يدخلها فى نطاق الدراسة اللغوية ويبعد بنا عن هدف البحث.

---

(١) د.حسني عبد الجليل، أساليب الاستفهام فى الحديث النبوي، دار المختار، ط١، ٢٠٠١، ص.

(٢) محمد محمد أبو موسى، دلالات التراكيب، مكتبة وهبه، ط٣، ٢٠٠٤، ص٢٢٢.

ولكن بعد استقراء تام للأحاديث -مادة الدراسة- اتضح أهمية تقسيمها وفق موقع الاستفهام فـى الحديث النبوى لمـا لمسـناه مـن اختـلاف الدلالـة، والأهداف، والتوجهات تبعاً لمكانة الاستفهام فى الحديث.

ولذلك تتضمن الدراسة ثلاثة مباحث.

المبحث الأول : الاستفهام فى مفتتح الحديث النبوى.

المبحث الثانى : الاستفهام بعد مقدمة فى وسط الحديث أو فى خاتمته.

المبحث الثالث : الاستفهام الحوارى أو فى سياق قصصى.

يعقبها خاتمة ثم ثبت بالمصادر والمراجع.

المبحث الأول:

الاستفهام فى مفتتح الحديث النبوى

نالت فواتح الكلام كثيراً من اهتمام الأدباء، والنقاد والبلاغيين، فنجد "الأدباء والنقاد يفطنون منذ وقت جد مبكر - إلى أهمية مطالع الأعمال الأدبية. قصيدة كانت - فى جاهليتهم - أو خطبة، ثم رسالة أو مقالة أو حكاية، فى الإسلام، ولأمر واضح الدلالة افتتح الشعراء قصائدهم بالنسيب والوقوف على الإطلال، والكتاب رسائلهم بالتحميدات، والحكاءون حكاياتهم بالصلاة على النبى (الزين). ومن ثم نجد أقوال النقاد تتوالى فى التوصية بالفواتح. روى أبو هلال العسكرى أنهم كانوا يقولون: "أحسنوا معاشر الكتاب الابتداءات، فإنهن دلائل الإعجاز"[(1)].

قال القرطاجنى: "وتحسين الاستهلالات والمطالع من أحسن شيء فى هذه الصناعة؛ إذ هى الطليعة الدالة على ما بعدها، المتنزلة من القصيدة منزلة الوجه والغرة، تزيد النفس بحسنها ابتهاجا ونشاطا، لتلقى ما بعدها، إن كان بنسبة من ذلك"[(2)].

كما فطن ابن الأثير إلى أهمية الافتتاح فى النثر والشعر وعقد له بابا سماه : "فى المبادئ والافتتاحات" [(3)]. ونبه إلى ضرورة اختيار الافتتاح المناسب المعبر عن الغرض وعلل لذلك بقوله: "وإنما خصت الابتداءات بالاختيار؛ لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان

---

(1) د.حسين نصار، فواتح سور القرآن، مطبعة الخانجى، ط١ أولى، ص ٥.

(2) حازم القرطاجنى، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوخة، تونس، ١٩٦٦، ص٣٠٩.

(3) ضياء الدين نصر الله محمد بن عبد الكريم ابن الأثير، المثل السائر، ، تحقيق: محمد محى الدين عبد الحميد. المكتب العصرية بيروت ط ١٩٩٥، ج٢/٢٢٣.

الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعى على استماعه، ويكفيك من هذا الباب الابتداءات الواردة فى القرآن، كالتحميدات المفتتح بها أوائل السور، وكذلك الابتداءات بالنداء، وكقوله تعالى فى مفتتح سورة الحج: "يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم" [١]. فإن هذا الابتداء مما يوقظ السامعين للإصغاء إليه .. والابتداءات بالحروف كقوله تعالى: "الم" "طس". و"حم" وغير ذلك، فإن هذه أيضا مما يبعث على الاستماع إليه، لأنه يقرع السمع شيء غريب ليس له بمثله عادة، فيكون ذلك سببا للتطلع نحوه والإصغاء إليه" [٢].

كما عقد العلوى فصلا من فصول كتاب "الطراز" للمبادئ والافتتاحات، حثّم فيه على كل من يتصدى لمقصد من المقاصد أن يكون مفتتح كلامه ملائما لذلك المقصد دالاً عليه، وذهب فيه إلى أن هذا الفصل ركن من أركان البلاغة، تجب مراعاته فى النظم والنثر كليهما [٣].

واتفق رأى السيوطى مع العلوى فى أن الابتداء الحسن من دلائل البلاغة عند علماء البيان، غير أنه وسع مفهوم الاعتناء بها، فحدده. "بأن يتأنق فى أول الكلام، لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محررًا أقبل السامع ووعاه، وإلا أعرض عنه، ولو كان الباقى فى نهاية الحسن، فينبغى أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأرقه، وأجزله وأسلسه، وأحسنه نظما وسبكا، وأصحه معنى، وأوضحه، وأخلاه من التعقيد والتقديم والتأخير المُلبس، أو الذى لا يناسب"[٤].

---

[١] سورة الحج آية ١.

[٢] المثل السائر، جـ٢/٢٢٤.

[٣] يحيى بن حمزة العلوى، الطراز، مطبعة المقتطف، مصر ١٩١٤م، جـ ٢/٢٦٦.

[٤] جلال الدين السيوطى، الإتقان فى علوم القرآن، دار مصر ص٤٥١.

وأضاف السيوطي: "ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى براعة الاستهلال، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله[1].

وبذلك نرى أن النقاد والبلاغيين تحدثوا عن "الابتداء"، "وبراعة الاستهلال"، "والافتتاح" وكلها تتصل بالاستهلال وجمال بداية الكلام، وأنه مما يثير السامع ويحرك في نفسه كثيرا من الكوامن[2].

اعتنى الرسول صلى الله عليه وسلم – بمفتتح الحديث، وبلاغته، وتنوعت ابتداءاته بحسب طبيعة الموضوع ومقصده ما بين قسم وتوكيد وأمر ونهي، ومن أكثر الأساليب التي استعملها في مفتتح أحاديثه الاستفهام، فكثيراً ما كان يستهل حديثه بسؤال يلقيه على السامعين ويفاجئهم به.

والاستفهام في مفتتح الحديث يختلف في طبيعته، وهدفه ودلالته البلاغية عن الاستفهام المطروح في وسط الحديث أو في خاتمته لأن بداية الكلام له دوره المؤثر في المخاطبين كما أشرنا آنفا.

استعمل الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنماط الاستفهام المختلفة في افتتاح الحديث. بعضها حقيقي وأكثرها استفهام خرج إلى أغراض بلاغية تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال، وسنتناول مجموعة من الأحاديث النبوية إلى استهلها الرسول صلى الله عليه وسلم بالاستفهام، وكان الاستفهام فيها يدور حول مفاهيم متعارف عليها فيما بينهم، أراد أن يصححها في رحاب العقيدة والفكر الجديد لدى المخاطب المسلم: كالمفلس،

---

(1) المرجع السابق.

(2) د.أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، المجمع العلمي العراقي، ١٩٨٣، جـ١/١٩٧.

والرقوب، والصرعه، والعضه، والزور ومن ذلك ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال: **"أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتى يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار"**(١).

افتتح الرسول -صلى الله عليه وسلم- حديثه بهذا السؤال المفاجئ للمخاطبين: "أتدرون ما المفلس" واتجهت أذهان إلى المعنى المادى المتعارف عليه بينهم فى مجتمعهم للإفلاس، فبادروا بالرد، المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع". وهم يقدمون المعنى اللغوى المتداول بينهم يقال: "صار ذا فلوس بعد أن كان ذا دراهم، فهو مفلس، وحقيقته الانتقال من حالة اليسر إلى حالة العسر" (٢).

استعمل النبى -صلى الله عليه وسلم- هذا التركيب الاستفهامى المكون من الهمزة التى دخلت على الفعل المضارع الدال على الحال والمستقبل لبيان أن المعنى ما زال مجهولا لديهم، وأن ما يعتقدونه من تصور للمفلس شيء، وحقيقة المفلس فى ضوء إعادة صياغة المفاهيم للمجتمع الجديد شيء مغاير لمفهومهم، ولو ألقى الرسول صلى الله عليه

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الأدب (البر والصلة والآداب) باب تحريم الظلم، جـ١٦، ط أولى، ١٩٢٩، جـ ١٣٥/١٦.

(٢) المصباح المنير، مادة فلس ص٢٨٦، لسان العرب جـ ١٥٨/٧ مادة فلس "وفلسه القاضى تفليسا نادى عليه وشهره بين الناس بأنه صار مفلسا".

وسلم – على الصحابة تعريف المفلس مباشرة دون إثارة هذا الحوار لكان من الممكن أن يمر على آذان السامعين مروراً عابرا سرعان ما ينسون مضمونه، ولكنه يبين لهم بعد هذا الحوار أن المفلس غير ما كانوا يعهدون، ومن أجل ذلك فإنهم لا ينسونه أبدا[1].

وقد لا نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن هذا الحديث يعتبر من جوامع كلم الرسول صلى الله عليه وسلم – فقد جاء في عدة جمل قليلة، لكنه يعطى صورة متكاملة عن حقيقة الإسلام وفكره، فإن كان المخاطبون لم يتخلصوا بعد من رواسب المعتقدات الجاهلية وغلبة النظرة المادية وأجابوا بأن المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار" فإنه رد هذا المفهوم الخاطىء الذى لا يتفق ومبادئ الإسلام. ولذلك فهو يصحح لهم هذا المفهوم بقوله: "إن المفلس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا .... "[2].

فكلمة "أمتى" توحى بأن مفهوم المفلس فى أمة الإسلامية له معنى مغاير لما هو متعارف فى مفهومهم وأشار الحديث لذلك بإجابتهم المفلس "فينا" فهى تعنى أي فى اعتقادنا الذى نشأنا عليه فى الجاهلية: " الذى لا درهم له ولا دينار .." وكأنه صلى الله عليه وسلم – يرى أن مفلس أمة الإسلام هو مفلس الأعمال الصالحة. ثم فصّل القول؛ إن المفلس هو الذى يسىء معاملة من حوله فيشتم هذا ويأكل مال هذا ويسفك دم هذا، ويضرب هذا ... هذا هو الإفلاس الحقيقى الذى يحبط صلاته وصيامه وزكاته...

[1] محمد بن لطفى الصباغ، الحديث النبوى، بيروت، المكتب الإسلامى، ط٦، ١٩٩٠، ص٨٨.
[2] المرجع السابق.

والاستفهام خرج عن معناه الحقيقي: وهو طلب الفهم [1] إلى المجازى وأريد به فى هذا الحديث استنفار عقول المخاطبين وأفهماهم ليتنبهوا لما يوجهه إليهم من معاني وقيم كانوا يفتقدونها فى مجتمعهم الجاهلى السالف.

ويستهل الرسول -صلى الله عليه وسلم- الحديث بالاستفهام، ليصحح لهم العديد من المفاهيم، ويعيد صياغة ما عهده الناس فى الجاهلية، ويفتح آفاقا جديدة للفهم والإدراك.

وفى الحديث التالى طرح عليهم أكثر من استفهام.

وذلك فيما رواه ابن مسعود -رضى الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال: **"ما تعدون الرقوب [2] فيكم؟ قال: قلنا الذى لا يولد له، قال: ليس ذاك بالرقوب ولكنه الرجل الذى لم يقدم من ولده شيئا"**.

قال: فما تعدون الصُّرعه [3] فيكم؟ قال: قلنا الذى لا يَصْرعَه الرجال. قال: ليس بذلك ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب" [4].

---

[1] جلال الدين السيوطى، شرح عقود الجمان فى علم المعانى والبيان، دار إحياء الكتب العربية، ص٤٩.

[2] قال الفيروزآبادى: الرقوب كصبور التى لا يبقى لها ولد ومات ولدها. وقال ابن الاثير: الرقوب فى اللغة للرجل والمرأة، إذا لم يعش لهما ولد لأنه يرقب موته ويرصده خوفا عليه (القاموس المحيط جـ١/٧٥. وجاء فى أساس البلاغة" إمرأة لا يعيش لها ولد فهى ترقب موت ولدها.

[3] ذكر الزمخشرى فى مادة ص ر ع . ورجل صريع وصرعه: "يصرع الناس أساس البلاغة جـ٢/١٤.

وفى المفردات فى غريب القرآن: الصرع. الطرح. يقال صرعته صرعا ص ١٨٤.

[4] صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب البر والصلة والآداب، جـ ١٦/١٦١.

وضح النووى هذا الحديث بقوله: "الرقوب فى كلام العرب الذى لا يعيش لـه ولـد، ومعنـى الحديث أنكم تعتقدون أن الرقـوب المحـزون هـو المصاب بموت أولاده، وليس هو كذلك شرعا. بل هو من لم يمت أحد مـن أولاده فـى حياتـه فيحتسبه ويكتـب لـه ثـواب مصيبتـه بـه وثــواب صــبره عليه[1]".

ثم سأل الرسول ما تعدون الصرعة فيكم؟ فأسرعوا بالإجابة بما هو متعارف عليه فى بيئتهم وفكرهم الجاهلى الـذى لا يصرعـه الرجـال لقوتـه البدنية. ينفى الرسول هذا المفهوم، ويوضح لهم أن الرجل الصرعة الشديد، هـو الـذى يملـك السيطرة علـى نوازعـه وانفعالاتــه فــى حالــة الغضــب، ويتصرف بحلم وكياسة، وكما قال صلى الله عليه وسلم: "يملـك نفسـه عنـد الغضب".

وهو فى هذا الحديث ينقل فكر المخاطبين من فهم الأشياء بمقـاييس واعتبارات مادية حسية إلى مخاطبــة الوجـدان والـروح، والنبـى صلـى الله عليـه وسـلم – عمـد إلـى بيـان وضـع كثـير مـن التعريفـات، وهــذا ليــس بالمستغرب عليه لأنــه مـن مهمتـه التعليميـة بيـان أن المفـاهيم تغيرت فـى المجتمع فى ضوء مستجدات الفكر الإسلامى الذى يهذب الغرائز، ويرتقــى بالأخلاق ويخاطب العقل، ولا يقـف علـى أعتاب الماضى بما كان عليه مـن تفاخر بالعصبيــة والقـوة، ولذلـك كـان المعنـى المشـترك البعيـد، والمغـزى المراد من الجمع بين الرقوب، والصرعة فى هـذا الحديـث مـا كـان يـهدف إليه من حضهم على الصبر والجلـد فـى الشـدائد، وضبـط النفس وانتظـار ثواب الآخرة دائما

---

[1] المرجع السابق

والاستفهام فى هذا الحديث بالصورة التى طرحها رسولنا وهو يسأل عما هو عارفه على سبيل المجاز، تمهيدا لما يريد بيانه ولإثارة انتباههم، ونقلهم من حالة الاسترخاء إلى حالة التفكير والتذكر.

ومن ذلك أيضاً ما رواه أنس بن مالك قال كنا عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فضحك فقال: **"هل تدرون مم أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال من مخاطبة العبد ربه يقول: يا رب ألم تجرنى من الظلم؟ قال: يقول بلى. قال فيقول: فإنى لا أجير على نفسي إلا شاهداً منى. قال فيقول: كفي بنفسك اليوم عليك شهيداً، والكرام الكاتبين شهودا. قال: فيختم على فيه. فيقال لأركانه[1]: انطقي، قال: فتنطق بأعماله. قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام قال فيقول: بُعداً لكن وسُحقاً[2]، فعنكن كنت أناضل[3]"**.

الاستفهام بهل استفتح به رسولنا الكريم الحوار مع المخاطبين؛ ليوضح لهم بعض حقائق يوم الحساب. والحوار وصف حي لحالة هذا الرجل الذى طلب أن تشهد عليه أركانه ظناً منه أنها ستناصره وتآزره، ولكن المفارقة أنها تنطق بأعماله، وتكشف عما يريد ستره، وبذلك نجد الاستفهام فتح باباً هاماً لبيان بعض الأمور المتعلقة باليوم الآخر والتى تحتاج إلى توضيح من رسولنا. فاستخدم الحوار الوصفى، والمفارقة في تذكير العبد بهذا اليوم المهول من خلال الحوار بين العبد وربه ثم الحوار بين العبد وجوارحه، وذلك في صورة حسية ذات ملامح مؤثرة تنطق

(١) أركانه: أى جوارحه.

(٢) بعداً لكن وسحقاً: دعاء على جوارحه لشهادتها عليه.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزهد، جـ١٨/١٠٤.

بأحوال الناس يوم الحشر. ويتكون سياق الحديث من كلمات تتلائم مع طبيعة الموقف ومع عاقبته ومع يوم القيامة: تجرنى - يخلي - بعداً - سحقاً - شهيداً - شهوداً - أناضل.

وأسلوب الاستفهام في الحديث الغرض منه التشويق وإثارة انتباههم وليس الغرض منه الاستفهام على الحقيقة، لأن الاستفهام ليس فقط طلب فهم المستفهم وإنما قد يكون لإفهام المسئول من السائل نفسه، فأنت تقول هل تعلم من أنا؟ أنا فلان"[١].

ويوضح ذلك ابن جنى في قوله: "أن المستفهم عن الشئ قد يكون عارفاً به مع استفهامه في الظاهر عنه لكن غرضه في الاستفهام عنه أشياء"، منها أن يرى المسئول أنه خفي عليه ليسمع جوابه عنه، ومنها أن يتعرف حال المسئول هل هو عارف بما السائل عارف به، ومنها أن يرى الحاضر غيرهما أنه بصورة السائل المسترشد لما له فى ذلك من الغرض[٢].

ولذلك سارع الصحابة بقولهم: "الله ورسوله أعلم" لأنهم توقعوا أن الضحك ثم الاستفهام من رسولنا الكريم له هدف معين، وتوضيح لفكرة ما.

والشئ إذا جاء بعد تمهيد له وتقديم يكون أوقع في النفس واثبت.

ويذكرنا هذا الحديث بآية كريمة من القرآن الكريم تحكى لنا مشهد حى قائم على الحوار الاستفهامي بين العبد وأعضائه يصف أمراً غيبياً

---

(١) د.حسني عبد الجليل، أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، ص٩.

(٢) عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد على النجار جـ٢/٤٦٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة التراث، ١٩٩٩.

يكون يوم القيامة بعد أن طلب ألا يكون شاهد عليه إلا من نفسه: قال تعالى: **"وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ، حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ، وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ،وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ"**[١].

ويتكرر هذا المنهج فى طرح الاستفهام فى بداية الحديث إما لتذكيرهم بما أخبرهم به سابقا، وإما لتعليمهم أشياء جديدة، وتختلف إجاباتهم بما يتلائم مع طبيعة الاستفهام المطروح. وخاصة إذا كان يسألهم عن شيء أعلمهم به مرارا ووضحه لهم كما فى قوله: **"هل تدرون ما الإيمان بالله؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وأقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمسا من المغنم، ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت"** [٢].

"هل تدرون ما الإيمان" سؤال ألقاه الرسول صلى الله عليه وسلم – على المخاطبين فيه مفاجأة لهم. ويبدو أن المخاطبين عهدوا من النبى صلى الله عليه وسلم – أن يبدأ بسؤالهم عندما يريد بيان فكرة معينة، ولذلك نجد إجاباتهم تكررت فى كثير من المرات التى يسألهم فيها "الله ورسوله أعلم" وكأن ما سيقوله ويخبرهم به مفهوم جديد غير الذى يعرفونه، ولذلك لم يحاولوا الإجابة وإنما تركوا الرسول صلى الله عليه وسلم – يوضح لهم

---

[١] سورة فصلت آية ١٩ : ٢٣.

[٢] صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الإيمان، جـ١/١٨٨.

مقصده من هذا السؤال الذى يعلمون بعلمه لـه ويحيط بحقيقته ولأن الاستفهام ليس فقط طلب فهم المستفهم وإنما قد يكون لإفهام المسئول من السائل نفسه، فأنت تقول هل تعلم من أنا؟ أنا فلان" ويرى ابن جنى: "أن المستفهم عن الشيء قد يكون عارفا مع استفهامه فى الظاهر عنه لكن غرضه فى الاستفهام عنه أشياء"[1]. والرسول صلى الله عليه وسلم ـ خرج بسؤاله عن معنى الاستفهام لأنه يعرف حقيقة الإيمان ولكنه أراد الإخبار به والغرض منه التحقيق والتأكيد لما سبق أن أخبرهم به.

وقد كرر الرسول استعمال صيغة "آلا أنبئكم" المكونة من أداة الغرض آلا مع الفعل المضارع الدال على الاستمرار فى العديد من الأحاديث لأن هذا الفعل يدل على الإخبار مع أهمية ما يخبر عنه. ويقول الراغب الأصفهاني: "النبأ خبر ذو فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبه ظن، ولا يقال للخبر فى الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة، وحق الخبر الذى يقال فيه نبأ أن يتعرى عن الكذب، بالتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النبى صلى الله عليه وسلم ـ" [2]. واجتمعت هذه الشروط الثلاثة فى الأحاديث التى افتتحها عليه السلام بالاستفهام "بآلا أنبئكم" ليشير إلى أهمية ما يخبر به، وهو دائما فيما يحذر منه.

ومن ذلك ما رواه عن عبد الرحمن بن أبى بكر عن أبيه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه سلم ـ فقال: **"آلا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثا**

---

[1] ابن جنى، الخصائص، تحقيق: محمد على النجار، ط٢، جـ٢/٢٦٤،٢٦٥

[2] الراغب الإصفهاني، المفردات فى غريب القرآن، تحقيق: محمد خليل غيتانى، بيروت، دار المعرفة، ط١، ص٤٨٢.

الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور. آلا وقول الزور [1] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[2]".

الاستفهام "بآلا أنبئكم" يشير إلى أهمية المذكور وإلى خطورة الآفات الثلاث وعظمها، ولذلك فقد بدأ بتكرار الاستفهام ثلاث مرات؛ آلا أنبئكم. بأكبر الكبائر" بغرض تنبيه المخاطبين، وتأهيل عقولهم وقلوبهم لسماع ذلك النبأ ثم فصّل القول؛ أما الأولى: الشرك بالله، والشرك بالله ظلم عظيم وهو كبيرة الكبائر. والثانية: عقوق الوالدين، ولا عجب فى ذلك. فقد أوصانا الله بالوالدين فى قوله تعالى:" **فلا تَقُلْ لَهُمَا أفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً** [3]". أما الثالثة: فهى شهادة الزور وكررها مستعملا أداة التنبيه آلا وقول الزور. أضاف راوى الحديث: "وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ متكئا فجلس فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت". وفى تحوله من الاتكاء إلى الجلوس بيان لشدة اهتمامه بالأمر ويفيد تأكيد تحريمه، وعظم قبحه" كما يشير إلى حرص الراوى على بيان سرد وقائع الحديث بكل تفاصيله القولية والفعلية والنفسية كما عاصره ولذلك فقد صور الحالة النفسية للمخاطبين عندما كرر ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحذيره مرات متتابعة من قول الزور حتى شعر كل من حوله بالرهبة

(1) قال الثعلبى المفسر وأبو اسحاق وغيره (الزور أصله تحسين الشيء ووضعه بخلاف صناعته حتى يخيل إلى من سمعه أو رآه أنه بخلاف ما هو به فهو تمويه الباطل بما يوهم أنه حق (النووى ٢/٨٤).

(2) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الإيمان، باب الكبائر، ٢/٨١،٨٢.

(3) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.

والخوف. وعبر عن ذلك بقوله: "فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت" وفى التكرار تحذير وترهيب للمخاطبين.

قال النووى فإنما قالوه وتمنوه شفقة على رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وكراهة لما يزعجه ويغضبه وذلك لما لشهادة الزور من أضرار على المجتمع والأفراد.

ومن استعمال أسلوب الاستفهام ألا أنبئكم نذكر حديثاً آخر أراد الرسول فيه تنبيه المخاطبين إلى آفة أخرى ضارة بالمجتمع فطرح السؤال التالى ولم يطلب منهم جوابا بل وبنفس أسلوب الاستفهام الذى نكون من أداة العرض مع الفعل المضارع الذى يفيد الأخبار المباشر ويشير إلى أهمية هذا النبأ. وذلك فيما رواه ابن مسعود أن محمدا صلى الله عليه وسلم- قال: **"آلا أنبئكم ما العضة[1] ؟ هى النميمة، القالة بين الناس، وإن محمد صلى الله عليه وسلم – قال إن الرجل يصدق حتى يكتب صديقا، ويكذب حتى يكتب كذابا"**[2].

النميمة هى نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد والقالة بين الناس أي التقول وهو كثرة الكلام بين الناس.[3] والاستفهام هنا يفيد التنبيه والتنفير من النميمة.

ونظير للاستفهام السابق ما جاء من تذكير وتحذير من آفة أخرى وهى الغيبة فقال: **"أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: ذكرك**

---

(1) العضة بكسر العين وفتح الضاد على وزن العدة، والثانى العضة بفتح العين واسكان الضاد على وزن الوجه، والثانى أشهر كما قال النووى جـ ١٦/١٥٩.

(2) صحيح مسلم بشرح النووى، باب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، جـ١٦/١٥٩.

(3) المرجع السابق.

أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته"[1].

البهتان كما ورد عن النووى الباطل، والغيبة ذكر الإنسان فى غيبته بما يكره، وأصل البهت أن يقال له الباطل فى وجهه وهما حرامان (أي البهتان والغيبة)[2].

وهذا الحديث الذى افتتحه النبى صلى الله عليه وسلم – بسؤال أصحابه أتدرون ما الغيبة؟ وهو يعلم ما المقصود بالغيبة وكما نعلم أن الاستفهام فى الأصل هو طلب العلم بشىء لم يكن معلوما من قبل بأداة خاصة[3] من قبل المستفهم .. ولكن الاستفهام الموجه إلى المخاطبين فى الحديث عن شىء يعلمه المستفهم رسولنا صلى الله عليه وسلم – وهو استفهام تقريرى يفيد التنبيه والتذكير وإن خشوا إن يجيبوا فتكون إجابتهم غير صحيحة ولذلك قالوا: "الله ورسوله أعلم" منتظرين التوضيح من النبى – صلى الله عليه وسلم – ولكن الإجابة لم تكن شافية فسئلوه. أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟ استفهام حقيقى لأنهم يجهلون الفرق بين الغيبة والبهتان ولذا كان بيان النبى – صلى الله عليه وسلم – إن كان منه فقد اغتبيه، وإن لم يكن فيه فقد بهته.

وكما استخدم رسولنا – صلى الله عليه وسلم – أسلوب الاستفهام لتصحيح بعض المفاهيم وتوضيحها كذلك استخدمه لحضهم على العبادات كقراءة القرآن، وتعليمه وتعلمه ومن ذلك ما روى عن مسلم بسنده قال: قال

(1) صحيح شرح النووى ١٦/١٤٢.

(2) السابق ١٤٣.

(3) عبد العزيز عتيق، علم المعانى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ص١٠٤

رسول الله صلى الله عليه وسلم:"**أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات [١] عظام سمان؟ قلنا نعم، قال: فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم فى صلاته خير له من ثلاث خلفات عظام سمان**"[٢].

واستهلال الحديث بهذا الاستفهام: "أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله ...؟ فيه تشويق وبشرى سعيدة للمخاطب تجعله يتعجل معرفة كيفية الحصول على هذا الفوز العظيم، وينتظره ولذلك سارعوا بقولهم نعم: فقال عليه السلام فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم فى صلاته.. هذا هو الطريق للفوز الحقيقى.

اعتمد الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى عرضه للحديث على عنصر من أهم عناصر البيئة البدوية وهو التمثيل بالإبل لتقريب المعنى إلى الأذهان، وهو بيان فضل قراءة آيات القرآن الكريم، وثوابه فجسد لهم الأمور المعنوية الدقيقة فى صورة حسية ملموسة أمام أعينهم.

بدأه بالاستفهام بوصفة الأداة الفاعلة فى تقديم هذا التمثيل الرائع؛ فكما أن الإبل الحوامل تشيع البهجة والسعادة والتفاؤل لديهم بوصفها ثروة البدوى فإن ثواب قراءة القرآن الكريم سوف تعم عليه وعلى أهله. وإن كان هو سيثاب على قراءته هذه فإن أهل بيته سيجنون ثمرة هذه الفضيلة فى الدنيا والآخرة، وهذه الصورة على سبيل التمثيل لبيان فضل تلاوة القرآن الكريم وهى صورة ثرية متعددة الجوانب تخاطب فى الإنسان أطماعه وأحلامه الدنيوية وتقابل بينها وبين آماله الأخروية.

---

[١] خلفات: بفتح الخاء المعجمة وكسر اللام الحوامل من الإبل إلى أن يمضى عليها نصف أمدها ثم هى عشار. والواحدة خلفه، وعشراء.

[٢] صحيح مسلم بشرح النووى، جـ٦/٨٩.

وساهم الاستفهام فى تشويق المخاطبين وترغيبهم فى أدراك أهمية قراءة القرآن وهو الهدف المباشر منه فى هذا الحديث. وجاء الاستفهام مرة أخرى للدعوة لقراءة القرآن وتعلمه فى قوله صلى الله عليه وسلم: "أيكم يحب أن يغدو وكل يوم إلى بطحان .. فيأتى منه بناقتين؟

وذلك فيما روى أصحابه رضى الله عنهم قالوا: قال صلى الله عليه وسلم **"أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان [1] أو إلى العقيق فيأتى منه بناقتين كوماوين [2] فى غير إثم ولا قطع رحم؟ فقلنا: يا رسول الله نحب ذلك قال: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث، وأربع خير له من أربع ومن أعدادهن من الإبل"**[3].

وفى الحديث أكثر من استفهام؛ الاستفهام الأول أيكم يحب أن يغدو إلى بُطحان أو إلى العقيق؟ فيأتى منه بناقتين (كوماوين أى عظيمة السنام).

"وأتى بالاستفهام ههنا ليقع فى النفس عذوبة المستفهم عنه واستحلاؤه [4] "وكان الاستفهام الأول هو تمهيد وتزين للاستفهام الثانى: أفلا يغدو أحدكم إلى المسجد فيعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله عز وجل خير له من ناقتين ..."؟

وإن كان الاستفهام الأول فيه تشويق للمخاطبين لينتظروا ما بعده فإن الاستفهام الثانى الذى ساقه الرسول وهو مترتب على ما جاء فى

---

(1) بطحان: بفتح الباء واسكان الطاء موضع بقرب المدينة.

(2) الكوما من الإبل بفتح الكاف: العظيمة السنام (شرح النووى جـ٦/٨٩).

(3) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٦/٨٩.

(4) شمس الدين أبى عبد الله محمد المعروف بابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، ط أولى، ١٣٢٧هـ، مطبعة السعادة ص ١٥٩.

الاستفهام الأول مكون من "آلا" التى تدعو للعرض بلطف مع الفعل المضارع الدال على الحال والاستمرار يفيد الترغيب فى تعليم القرآن الكريم وقراءته وكلما زاد من القراءة كلما تضاعف ثوابه.

وهذا استفهام ثالث استهل به الحديث للترغيب فى قراءة القرآن وبيان فضل بعض السور؛ روى أبى بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:- **"يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم. قال: يا أبا المنذر أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحى القيوم**[1]. **قال: فضرب فى صدرى، وقال: والله ليهنك العلم يا أبا المنذر"** [2].

بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم بسؤال أبى بن كعب الصحابى الجليل كاتب الوحى وقارئ القرآن بقوله: أتدرى أى آية من كتاب الله معك أعظم؟ ولم يجب أبى، وقال الله ورسوله أعلم، منتظر الإفادة من رسول الله"فالسائل هنا يسأل عما هو عارفه لا السؤال عن مجهول الحال"[3]. فكرر رسولنا الاستفهام مرة أخرى "لأبى" عله يجيب بما يعرف فأجاب بتلاوته آية الكرسى"الله لا إله إلا هو الحى القيوم" الاستفهام تقريرى يريد المتكلم به اقرار المخاطب بما يعرفه فطالما أعلمهم صلى الله عليه وسلم بذلك وهو يفيد الترغيب والتعليم والتذكير.

وقد أعلن رسولنا صلى الله عليه وسلم - اغتباطه لإجابة أبى بن كعب وقال له: "ليهنك العلم يا أبا المنذر".

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، جـ ٩٣/٦.

(2) سورة البقرة الآية ٢٥٥.

(3) ابن جنى الخصائص، جـ٢/٢٦٥.

وبنفس هذا الأسلوب التعليمي الذى يعتمد على الاستفهام بادر الرسول صلى الله عليه وسلم – أبا الدرداء وصحابته فتسائلا "**أيعجز أحدكم أن يقرأ فى ليلة ثلث القرآن؟ قالوا: وكيف نقرأ ثلث القرآن، قال: قل هو الله أحد، تعدل ثلث القرآن**"[1].

وفى مقام الأخبار عن صفات أهل الجنة وأهل النار وهول يوم القيامة وردت طائفة من أحاديث الرسول التى افتتحها بالاستفهام بغرض الأخبار وهو التشويق والترغيب واستعمل فيها أداة العرض المكونة من "ألا" بفتح الهمزة وتخفيف اللام ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم – "**ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف**[2]**. لو أقسم على الله لأبّره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل جواظ**[3]**. زنيم، متكبر**"[4].

ألا أخبركم بأهل الجنة؟ أسلوب استفهام تقريرى يفيد التشويق "وفيه لا يطلب السائل العلم بشيء لم يكن معلوما له من قبل، وإنما يريد أن يوجه المخاطب ويشوقه إلى أمر من الأمور"[5] الا وهو صفة أهل الجنة.

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، جـ٦/٩٤.

(2) قال النووى: متضعف: يستضعفه الناس ويحتقرونه ويتجبرون عليه لضعف حاله فى الدنيا يقال تضعفه واستضعفه وأما رواية الكسر متضعف (بكسر العين) فمعناها متواضع متذلل خامل واضع من نفسه من تسير والأقرب فى معنى الحديث (متضعف بالفتح).

(3) جواظ زنيم متكبر (الجواظ) هو الجموع المنوع وقيل كثير الحكم المختال فى مشيته، وقيل القصير البطين، وقيل الفاخر بالخاء، أما (الزنيم): فهو الدعى فى النسب الملصق بالقوم وليس منهم شبه بزنمة الشاة، وأما المتكبر والمستكبر فهو صاحب الكبر وهو بطر الحق وغمط الناس.(صحح مسلم ١٨٧/١٧).

(4) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، جـ١٧/١٨٧.

(5) عبد العزيز عتيق، علم المعانى، ص١١٦.

ثم عاود عليه الصلاة والسلام الاستفهام مرة أخرى؛ ألا أخبركم بأهل النار؟ وهو استفهام تقريرى بأداة العرض "آلا" ويفيد هنا التحذير من هذه الصفات التى ذكرها وتؤدى بصاحبها إلى النار.

ونقل النووى عن القاضى المقصود بالضعيف المتضعف: "قوله وقد يكون الضعف هنا رقة القلوب ولينها واخباتها للإيمان. والمراد إن أغلب أهل الجنة هؤلاء كما أن معظم أهل النار القسم الآخر وليس المراد الاستيعاب فى الطرفين[1].

ويوضح النووى الصفة الثالثة لأهل الجنة "ولو أقسم على الله لأبره" أى لو حلف يمينا طمعا فى كرم الله تعالى بابراره لأبره وقيل لو دعاه لأجابه وهذا القسم متناسب مع ما وصف به أهل الجنة من تواضع، ورقة قلب وتوكل على الله، ويقابل هذه الصورة الوصفية الموجزة لأهل الجنة صورة أهل النار وما يتسم به من تفاخر وكبر وادعاء عراقة النسب وأصالة المنبت زورا وبهتانا.

واستعمل الاستفهام للتبشير والوعد بالجنة للمسلمين كما فى الحديث التالي:

روى عبد الله قال: قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ "**أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قال: فكبرنا ثم قال: أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قال: فكبرنا ثم قال: إنى لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك ما المسلمون فى الكفار إلا كشعرة بيضاء فى ثور أسود أو كشعرة سوداء فى ثور أبيض**"[2].

---

(1) صحيح مسلم، شرح النووى، جـ١٧/١٨٨.

(2) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الإيمان، جـ٣/٩٥.

والاستفهام "أما ترضون" بفتح همزة أما وتخفيف الميم أدخلت على الفعل المضارع للعرض. وهى دائما تدخل على الجملة الفعلية[1]. وهو طلب الشيء بلين ورفق والغرض هو تشويق المسلمين وبعث الأمل والتفاؤل فى نفوسهم بالفوز بجنة الخلد.

وضح النووى فى شرحه مقصد الحديث بقوله: أما قوله صلى الله عليه وسلم – ربع أهل الجنة، ثم ثلث أهل الجنة ثم الشطر ولم يقل أولا شطر أهل الجنة فلفائدة حسنة وهى: إن ذلك أوقع فى نفوسهم، وأبلغ فى إكرامهم فإن اعطاء الإنسان مرة بعد أخرى دليل على الاعتناء به ودوام ملاحظته.

وفيه فائدة أخرى هى تكريره البشارة مرة بعد أخرى، وفيه أيضا حملهم على تجديد شكر الله تعالى، وتكبيره وحمده على كثرة نعمه[2].

ويصور الحديث المسلمين بأنهم قلة قليلة بالنسبة لأهل الشرك ومثل لهم بثور جسده كله بالشعر الأسود وفيه شعرة بيضاء واحدة، لا تكاد ترى. هكذا المسلمون فى الناس، وهذا الحديث يكشف عن رحمة الله بعبادة المؤمنين واكرامه لهم على الرغم من قلتهم بالنسبة للآخرين.

وكما نرى اعتمد الحديث على الحوار لتقرير ما يريده فتدرج معهم بالسؤال بدأ بقوله: أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟

فسعدوا وكبروا لسرورهم بهذه البشارة العظيمة، ثم زاد وقال لهم أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ فكبروا فرحا واستبشارا. ثم ختم حواره برجاء أن يكونوا شطر أهل الجنة.

---

(١) عبد العزيز عتيق، علم المعانى، ص١١٨.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى، جـ٣/٩٥،٩٦.

يتضمن الحديث إضافة إلى أسلوب الاستفهام أسلوب القصر بما وإلا: "ما المسلمون فى الكفار إلا كشعرة بيضاء فى ثورة أسود". والقصر فيه للتخصيص والحصر وذلك ليخصهم بالنقاء والطهر المأخوذ من البياض وتميزهم بالتفرد والإشراق فهم قلة ناصعة نقية.

تضمنت بنية الحديث ألفاظ تخدم المعنى وتقربه بدون تكلف كما بين الأبيض والأسود. والمسلمين والكافرين وأضفى التدرج فى الحوار من ربع إلى ثلث إلى نصف على النص روح التشويق والمتابعة وكان أسلوب الاستفهام فى هذا الحديث المفتاح والركيزة الأولى التى دفعت بسياق الحديث وتدفقه.

ولمرونة أسلوب الاستفهام واتساع أغراضه كان وسيلة النبى صلى الله عليه وسلم - كلما أراد بيان فكرة ما أو تقريب أمر من الأمور للمخاطبين كما فى حديث الحض على الصلوات الخمس.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"أرايتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنة شيء. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا"**[(١)].

استهل الرسول حديثه بالاستفهام" أرايتم" وهو فعل مضارع دخلت عليه همزة الاستفهام، وهو تركيب لغوى شائع فى الحديث الشريف ورد الاستفهام به حقيقيا حينا، وخرج من معناه الحقيقى إلى معان أخرى أحيانا"[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى، جـ ١٧٠/٥.

(٢) د.خليل عودة، بناء الجملة فى الحديث النبوى، دار البشير، ط أولى، ١٩٩٤، ص٤١٩.

والاستفهام "أرايتم لو أن نهرا بباب أحدكم" خرج عن معنى الاستفهام الحقيقى إلى الترغيب والتحضيض للمداومة على الصلاة.

والحديث يرسم لنا لوحة فنية متعددة الألوان تشعرنا بحركة النهر وتدفقه وما يضيفه من إحساس باليسر والجمال فى ملاصقته للبيت، وهل هناك أروع من بيت على نهر؟

ويرى ابن حجر أنه استفهام تقرير متعلق بالاستخبار[١]، أي أخبرونى هل يبقى لو أن نهرا قال الطيبى: لفظ "لو" يقتضى أنه يدخل على الفعل وأن يجاب، لكنه وضع الاستفهام موضعه تأكيدا وتقريرا، والتقدير لو ثبت نهرا صنعته كذا لما بقى كذا "[٢].

كرر الاستفهام بقوله هل يبقى من درنه شئ؟ والدرن القاذورات.

الاستفهام فخرج من معناه الحقيقى. لأن المقصود بالدرن الدرن المعنوى من الآثام والأخطاء التى يرتكبها الإنسان فى حق نفسه وفى حق الآخرين. والاستفهام الموجه للمخاطبين لا يريد منه جوابا منهم لأنه يعرف الإجابة. ولذلك فقد سألهم ثم سارع بإيضاح الصورة أمامهم، ولكنهم سارعوا بالإجابة بتأكيد مقصد الرسول. وقالوا: لا يبقى من درنه شئ: والفاء فى "فذلك" جواب شيء محذوف. أي إذا تقرر ذلك عندكم فهو مثل الصلوات ..[٣].

---

[١] أحمد ابن على ابن حجر العسقلانى، فتح البارى شرح صحيح البخارى، تحقيق ومراجعة: عبد العزيز بن باز؛ محمد فؤاد عبد الباقى، دار المنار، الطبعة الأولى، جـ١٣/٢.

[٢] المرجع السابق.

[٣] فتح البارى شرح صحيح البخارى، جـ١٣/٢.

ويتوالى الحوار بين الرسول وأصحابه فيقول لهم إن زوال هذه الأدران بالماء مثل الصلوات الخمس من يؤديها ويواظب عليها يغفر الله له خطاياه ويذهب سيئاته وتتطهر روحه لدوام صلته بالله تعالى - "وفائدة التمثيل التأكيد، وجعل المعقول كالمحسوس وقال ابن العربى: وجه التمثيل أن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة فى بدنه وثيابه ويطهره الماء الكثير فكذلك الصلوات تطهر العبد من أقذار الذنوب حتى لا تبقى له ذنبا إلا أسقطته"[١].

واعتمد فى تصوير المعنى على إثارة نظر السامعين باستخدام صيغة الاستفهام (أرايتم) لما تتضمنه من الاعتماد على الرؤية وذلك لتحويل الصورة الخيالية إلى صورة مرئية تأكيدا وتقريرا لما يراد من وراء رؤيتها.

ويوضح معنى هذا الحديث الشريف حديث نبوى آخر يفيد معناه وافتتحه صلى الله عليه وسلم بالاستفهام أيضا، وهو ما رواه أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدرجات قالوا: بلى يا رسول الله قال: إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط"**[٢].

الاستفهام الذى بدأ به الحديث: آلا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا. الاستفهام خرج عن غرضه الحقيقى إلى العرض والتحضيض على فعل الأعمال التى يمحو الله بها الخطايا. وفى المعجم الكبير "خصو

---

(١) فتح البارى شرح صحيح البخارى، جـ٢/١٤.

(٢) صحيح مسلم شرح النووى جـ ٣/١٤١ (٢) لسان العرب مادة "ألا"

ألا التى للعرض والتحضيض، بالجملة الفعلية ومن ذلك قوله تعالى: "آلا تحبون أن يغفر الله لكم [1]."[2].

فجاء الاستفهام لحث المخاطبين على أفعال معينة ووعدهم بالدرجات الرفيعة إذا قاموا بها وهى فى مجملها لا تختلف عما جاء فى الحديث السابق.

وختم عليه السلام حديثه بقوله" فذلكم الرباط" قال النووى: "أي الرباط المرغب فيه، وأصل الرباط الحبس على الشيء كأنه حبس نفسه على هذه الطاعة، قيل ويحتمل أنه أفضل الرباط كما قيل الجهاد جهاد النفس، ويحتمل أنه الرباط المتيسر الممكن أى أنه من أنواع الرباط[3]. وفى المصباح" الرباط اسم من رابط مرابطة من باب قاتل إذا لازم ثغر العدو"[4] والأصفهاني فى غريب القرآن يقول: "الرباط مصدر ربطت ورابطت، والمرابطة كالمحافظة، قال الله تعالى: "**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**""[5]. فالمرابطة ضربان: مرابطة فى ثغور المسلمين وهى كمرابطة النفس البدن فإنها كمن أقيم فى ثغر وفوض إليه مراعاته فيحتاج أن يراعيه غير مخل به وذلك كالمجاهدة[6]. ويبدو من تناول الأصفهاني لمادة ربط أن المقصود فى الحديث مجاهدة النفس.

---

(1) سورة النور ٢٢

(2) عبد العزيز عتيق، علم المعانى، ص١١٨.

(3) المرجع السابق.

(4) المصباح المنير، ص ١٣٢.

(5) سورة آل عمران، الآية ٢٠٠.

(6) الراغب الأصفهاني، المفردات فى غريب القرآن، دار المعرفة بيروت، تحقيق: محمد خليل غيتانى، ط١٩٢/٣.

وورد الاستفهام فى الحديث كأسلوب لعرض بعض الأفكار التى يرى النبى صلى الله عليه وسلم ـ ضرورة أعلام المخاطبين بها ومراعاتها فى حياتهم كالتحذير من البخل والتقتير والضن بالمال والترغيب فى إنفاق المال لوجه الله أيكم مال وارثه أحب غليه من ماله؟

وذلك فيما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما آخر**".

وفى هذا الحديث حض من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على الصدقة والعطاء من المال المدخر وأن حبه لماله يجعله يتصدق به فى سبيل الله، وليس حبه لماله يجعله يختزنه ويشح به، لأنه بذلك كأنه يحافظ على مال ورثته وهو لا يدرى فيم ينفق هؤلاء الورثة المال الذى يتركه وانتقل من ملكيته إلى ملكيتهم.

والحديث قدم لنا صورتين من صور الاستخدام البلاغى لكشف حقيقة الأمر وإقناع المخاطبين ألا يحرصوا على حبس المال وعدم إنفاقه فى وجوه الخير؛ الصورة الأولى التركيب الاستفهامى وهو هنا يبدأ بأداة الاستفهام (أى) "ويسئل بأى عما يميز أحد المتشاركين فى أمر يعمهما نحو "أى الفريقين خير مقاما" أي نحن أم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ـ فالمؤمنون والكفار قد اشتركا فى الفريقية وسألوا عما يميز أحدهما عن الآخر الذى يقع به التميز هو الخيرية. والجواب بالتعيين[1]". وفى الحديث جاءت أي مضافة إلى ضمير المخاطف "أيكم". والاستفهام فى الحديث الغرض منه الترغيب فى الإنفاق والتحذير من حبس المال.

---

(١) السيوطى، شرح عقود الجمان، ص٥٣.

وفى قوله صلى الله عليه وسلم مال وارثه "مجاز مرسل" باعتبار ما سيكون لأن وارثه ليس له مال إلا عندما تنتقل ثروة المخاطب إلى وارثة بعد موته وبذلك يصبح المال ملكا لوارثه.

ولاشك أن الاستفهام فى الجملة ساعد على تفهم الدلالة الخاصة بالسياق، وكشف عن حقيقة كادت تغيب على المخاطبين وهى أن مالهم ما أنفقوا وليس ما أدخروا.

وفى خاتمة المبحث نشير إلى أن الدراسة كشفت عن صورة متناسقة ودقيقة للصلة بين صيغة الاستفهام الصادرة من الرسول -صلى الله عليه وسلم- فى مستهل الحديث وبين صيغة الإجابة من المخاطبين حينما يجيبون، وحاولنا أن نوضحها فى الجدول التالى.

م	صيغة الاستفهام	جملة الاستفهام	إجابة المخاطبين
١	الهمزة + تدرون	أتدرون ما الغيبة؟	الله ورسوله أعلم.
		أتدرى أى آية فى كتاب الله أعظم؟	الله ورسوله أعلم.
	هل + تدرون	هل تدرون ما الإيمان؟	الله ورسوله أعلم.
		هل تدرون مما أضحك؟	الله ورسوله أعلم.
		أتدرون ما المفلس؟	أجاب الصحابة وصحح لهم إجابتهم.
٢	أداة آلا مع الفعل المضارع الدال على الاختيار أنبأ أو أخبر.	آلا أنبئكم بأكبر الكبائر؟	سأل الرسول وأجاب مباشرة دون أن ينتظر منهم إجابة.
		آلا أنبئكم ما العضه؟	" " " "
		آلا أخبركم بأهل الجنة؟	" " " "
		آلا أخبركم بأهل النار؟	
		آلا أدلكم على ما يمحو به الخطايا؟	أجابوا "بلى"

م	صيغة الاستفهام	جملة الاستفهام	إجابة المخاطبين
٣	ما مع الفعل المضارع	ما تعدون الصرعة فيكم؟ ما تعدون الرقوب فيكم؟ أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟	أجابوا وصحح لهم الإجابة. أجابوا وصحح لهم الإجابة. أجابوا ووضح لهم المقصود
٤	الهمزة مع الفعل المضارع.	أرايتم لو أن نهر بباب أحدكم هل يبقى من درنه شئ؟ أيحب أحدكم إذا رجع إلى أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات؟ أفلا يغدوا أحدكم إلى المسجد فيعلم.. أيعجز أحدكم أن يقرأ فى ليله ثلث القرآن؟	الإجابة مرتبطة بالسؤال الثانى هل يبقى من درنه شئ. الإجابة نعم. لم ينتظر إجابة بل أنهى الحديث. أجابه.. كيف يقرأ فى ليلة ثلث القرآن؟
٥	أى مضافة إلى ضمير.	أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان فيأتى منه بناقتين كوماوين فى غير إثم ولا قطع رحم. أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟	أجابوا يا رسول الله نحب. ما منا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه.

المبحث الثانى

الاستفهام بعد مقدمة في وسط الحديث أو في خاتمته

يعتبر كل حديث نبوى نص أدبى متفرد البلاغة له مقدمة وخاتمة، يختص بموضوع مستقل بذاته، وهذا الموضوع يشكل قيمة أخلاقية أو اجتماعية، أو يتضمن تشريع أو حكم فقهي لإحدى المسائل التى يمس المخاطبين ولذلك لم يرد الحديث مجرداً من السياق الذى قيل فيه. بل حرص الرواة على ذكر الظروف والأحداث والأشخاص المحيطين بوقائع مقولة الرسول، كما حرصوا على وصف ما تضمنه قول الرسول -صلى الله عليه وسلم- من إشارة باليد، أو تكرار في القول أو ارتفاع في الصوت أو انخفاض وغيره من فنون التعبير. ومعنى ذلك أن الرواة أدركوا أهمية نقل الحديث بسياقه كاملاً وكانوا على وعى تام بأن الحديث ليس مجرد الألفاظ التى ينطقها الرسول -صلى الله عليه وسلم- فحسب لأن هذه الألفاظ لا تفهم إلا في سياق المقام الذى قيلت فيه، فهى وثيقة الصلة بالمخاطبين وأحوالهم، وطبيعتهم.

ولذلك أفردنا هذا المبحث من الدراسة للاستفهام إذا جاء بعد مقدمة، وقد تكون وصف من الراوى لما بدر من الرسول قبل طرحه الاستفهام، أو تمهيد من النبى -صلى الله عليه وسلم- لما يريد أن يطرحه من سؤال، أو جاء في نهاية الحديث. ويجدر التنبيه إلى اختلاف وظيفة الاستفهام تبعاً لتغير موقعه في الحديث، فقد يأتى في وسط الحديث بعد المقدمة مباشرة ويكون له وقعه ودلالته، وقد يختم به الحديث فتختلف أغراضه، ودلالته. ولذلك دار هذا المبحث حول محورين:

١- الاستفهام بعد مقدمة.

٢- الاستفهام فى خاتمة الحديث.

المحور الأول : الاستفهام في وسط الحديث :

نقدم فى هذا المبحث مجموعة من أحاديث الرسول المتضمنة الاستفهام تفصح عن حرص الراوى على ذكر سياق الحال الذى ورد فيه الحديث من حركة أو إشارة أو ضحك أو تنبيه لرسولنا -صلى الله عليه وسلم- يعقبه الاستفهام كما نرى فى الحديث الذى رواه الزهرى عن عروة عن أسامة أن النبى -صلى الله عليه وسلم- **أشرف على أطم[1] من آطام المدينة ثم قال: "هل ترون ما رأى؟ إنى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر"[2].**

بدأ الحديث بتمهيد يصف فيه الراوى حال رسولنا الكريم وصحابته قبيل صدور الاستفهام بقوله: "إن النبى -صلى الله عليه وسلم- أشرف على أطم من آطام المدينة وكما نعلم أن الأطم مكان مرتفع، يكشف بيوت المدينة كلها وما يتخللها. وهذا الوصف وثيق الصلة بما جاء من تساؤل الرسول -صلى الله عليه وسلم- هل ترون ما أرى؟ وكأنه وهو على هذا الارتفاع يرى ويكشف ما لم يره غيره.

وفي تحديد الراوى لمكان التواجد وهو المدينة مركز الدعوة ونواة الدولة الإسلامية إشارة إلى أن شرارة الفتن ستنطلق من المدينة وهو ما يتفق مع واقع التاريخ وأحداثه.

ونلاحظ اهتمام الرواة برصد تفاصيل الوقائع المرتبطة بالحديث ودورها فى فهم مضمونه وأحكامه.

---

(1) الأطم بضم الهمزة هو القصر والحصن وجمعه آطام.

(2) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الفتن، جـ١٨/٧.

يفاجأ النبى -صلى الله عليه وسلم- الصحابة بقوله: "هل ترون ما أرى؟" ماذا يرون؟ لا شئ غريب يرى روئ العين يمكن أن يراه الصحابة، ولذلك سارع عليه السلام بالجواب: "إنى أرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر". والمسارعة في الإجابة لها دلالتها فالاستفهام هنا ليس على سبيل الحقيقة لأنه يوقن إنهم لا يرون ما يرى. ولكن الاستفهام الغرض منه لفت انتباهم، وجذب أسماعهم إلى ما يريد أن يخبرهم به؛ وهو التحذير من تلاحق الفتن في المستقبل وانتشارها في كل مكان كالمطر عندما يهطل يُغطى المكان كله، يقول النووى: والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم أى أن -الفتن- كثيرة وتعم الناس لا تختص بها طائفة، وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم كموقعة الجمل وصفين، والحرة، ومقتل عثمان، ومقتل الحسين رضى الله عنهما وغير ذلك وفيه معجزة ظاهرة له -صلى الله عليه وسلم-"[١].

ويمثل الحديث تشكيل فنى رائع يجمع بين عدة أوجه بلاغية، الاستفهام، والتأكيد، والتشبيه.

فهو يتسائل هل ترون ما رأى؟ وكأنه يراها بعين الحقيقة مجسدة ماثلة أمامه، فتن كثيرة متلاحقة يراها ويرى آثارها ببصره وبصيرته بما أوحى الله به إليه، واستعمل الاستفهام بهل مع الفعل المضارع ترون ثم كرر أرى مرة أخرى ليوحي إلى المخاطبين بيقين هذه الرؤيا وبانتقاله -صلى الله عليه وسلم- إلى المستقبل ومشاهدته لهذه الفتن حقائق مؤكدة تتحرك أمامه وتتوالى، ثم كرر لفظ الرؤيا مرة ثالثة مقروناً بأن المؤكدة ولام التوكيد "إنى لأرى مواقع الفتن" إيماء إلى جدية الأمر وخطورته، وفي قوله خلال بيوتكم

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الفتن، جـ١٨/٨.

بيان لتمكن وتعمق تلك الفتن في بيوتهم وهو لا يقصد هذه البيوت بجدرانها وأحجارها ولكن المقصود أهل هذه البيوت لإبراز المعنى المقصود منه.

وبذلك نرى أن كل ألفاظ الحديث وجملة تتآزر مع بعضها البعض لإبراز المعنى المقصود في أدق صورة وأوضحها.

وفى حديث آخر نجد الراوى يبدأ الحديث بوصفه حادثة معينة دفعت بالرسول إلى توجيه اللوم والعتاب بأسلوب استفهامى يقوم على تعميم الحكم تلطفاً مع من ارتكب هذه الفعلة المخالفة للآداب العامة وذلك فيما روى عن أبى هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- رأى **نخامة في قبلة المسجد فأقبل على الناس فقال: ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه؟ أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع فى وجه؟ فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره تحت قدمه.."**[1].

في هذا الحديث من آداب النبوة وتهذيبها للمسلمين في كل زمان، ما يكشف عن مقدرة بلاغية رائعة في توجيه المخاطبين دون تجريح أو إحراج مع إقناع ناتج عن قوة الحجة. فهو لم يذكر شخص معين بل عمم توجيهه ليكون تنبيهاً لكل من يرتكب هذه الفعلة مستعملاً صيغة الاستفهام الإنكارى الذى يفيد التقريع والتنفير: "ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه؟ ثم كرر استعمال أسلوب الاستفهام مرة أخرى موضحاً عظم هذا السلوك الشائن في قوله: "أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه؟ فهو استفهام إنكارى يفيد التبكيت، والتنبيه على بشاعة هذا المسلك.

وأسلوب الاستفهام هو خير تعبير وأكثره إيجازاً في بيان الهدى النبوي في هذا الموقف.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى، جـ٥/٤٠.

وفي الحديث التالى يعرض لنا فكرة موجزة عن صفات المسلم ثم طرح تساؤله على السامعين لاختبارهم ومعرفة مدى فطنتهم. أو كما قال البخارى: "طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم"[1] وذلك فيما رواه عبد الله بن عمر عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: "**إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم، فحدثونى ما هى؟ فوقع الناس في شجرة البوادى قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا: ما هى يا رسول الله؟ قال: فقال هى النخلة، قال: ذكرت ذلك لعمر قال: لأن تكون قلت هى النخلة أحب إلى من كذا وكذا**"[2].

قال النووى: "في هذا الحديث فوائد منها استحباب إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليختبر أفهامهم ويرغبهم في الفكر والاعتناء، وفيه ضرب الأمثال والأشباه، وفيه توقير الكبار، كما فعل ابن عمر، لكن إذا لم يعرف الكبار المسألة فينبغى للصغير الذى يعرفها أن يقولها، وفيه سرور الإنسان بنجاحه ولده وحسن فهمه"[3].

بدأ الحديث بمقدمة مهد فيه لسؤاله "إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم" فلفت أنظار المخاطبين إلى أن هناك شجر ثابت لا يتساقط أوراقه ثم شبهه بالمسلم، وكان السؤال الذى طرحه متعلق بالمقدمة فقال: "فحدوثنى ما هى؟" أى خبرونى ما هى هذه الشجرة التى وصفتها لكم" وقد شبهها بالمسلم في صفاتها الحميدة النافعة، ولما كانت النخلة من أقرب

(1) فتح البارى شرح صحيح البخارى، جـ١/١٨٧.

(2) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، جـ١٧/١٥٣.

(3) المرجع السابق.

الأشجار إليهم وهى عنصر هام من عناصر البيئة المحيطة بهم، بل ربما يكونوا وقت سؤال الرسول لهم جالسين بجوارها، لذلك استبعدوها وحاولوا أن يغربوا في الإجابة ولذلك قال الراوى: فوقع الناس في شجر البوادى.

وأدرك عبد الله بن عمر أنها النخلة ولصغر سنه، لم يبادر بالإجابة تأدباً وإجلالاً لشيوخ الصحابة.

وفي قوله "حدثونى ما هى" ما للسؤال عن الجنس أى "أى أنواع الشجر؟" والاستفهام خرج عن أغراض الاستفهام الحقيقى لأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- يسألهم عن شئ هو يعلمه ومهد لهم بهذه المقدمة لدفعهم إلى التفكير والتأمل في الصورة التى يجب أن يكون عليها المؤمن، وشتان ما بين أن يلقى عليهم الأمر مباشرة وما بين أن يقدمها مقرونة بشئ يرتبط ببيئتهم التى نشأوا فيها بصيغة الاستفهام لترسيخ المعنى في أذهانهم.

قال ابن حجر: "وفي هذا الحديث من الفوائد.. امتحان العالم أذهان الطلبة بما يخفى مع بيان لهم إن لم يقع لم يفهموه، وفيه التحريض على الفهم في العلم.. وفيه ضرب الأمثال والأشباه لزيادة الأفهام، وتصوير المعانى لترسيخه في الذهن، ولتحديد الفكر في النظر في حكم الحادثة، وفيه إشارة إلى تشبيه الشئ بالشئ لا يلزم أن يكون نظيره من جميع وجوهه.." [١].

المحور الثاني : الاستفهام في خاتمة الحديث :

اختلف مدلول الاستفهام وأغراضه حينما ختم به الحديث النبوى، فقد يكون نتيجة مستخلصة من سياق الحديث، أو حكمة مستقاه من مقدمته، أو حكماً شرعياً لما تقدم من نص الحديث.

---

[١] فتح البارى شرح صحيح البخارى، جـ١/١٨١.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أن رسول الله قال: "يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا"[١]، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: (يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ)[٢]، وقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ)[٣] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء؛ يا رب يا رب ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام. فأنى يستجاب له"[٤]؟

الحديث يبدأ بمقدمة يوضح فيها الرسول -صلى الله عليه وسلم- عدة حقائق حول الرزق ووجوب تحرى الحلال. وأنه كما أمر المرسلين بالحلال أمر المؤمنين. ففي قوله "إن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً". قال مالك نقلاً من القرطبى: الطيب هو الحلال، وقال الشافعى الطيب المستلذ وحلالاً طيباً ويوضح القرطبى الحلال نقلاً عن سهل فيقول ولا يكون المال حلالاً حتى يصفو من ست خصال الربا، والحرام، والسحت، والغلول، والمكروه، والشبهة"[٥].

---

(١) الطيب ما تستلذه الحواس وما تستلذه النفس، والطعام الطيب في الشرع ما كان متناولاً حيث ما يجوز وبقدر ما يجوز، ومن المكان الذى يجوز فإنه متى كان كذلك كان طيباً عاجلاً وآجلاً لا يُستوخَمُ، وإلا فإنه وإن كان طيباً عاجلاً لم يطيب آجلاً وعلى ذلك قوله: "كلوا من طيبات ما رزقناكم".

(٢) المؤمنين آية ٥١.

(٣) البقرة آية ١٧٢.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووى جـ٧/١٠٠.

(٥) محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الثالثة عن طبعة دار الكتب المصرية، دار الكاتب العربي،جـ٢، ط٣، ١٩٦٧، ٢٠٨.

ويتضح مما ورد عن القرطبى أن الطيب هو الحلال الخالى من كل شبهة الحرام سواء في المأكل أو المشرب أو الملبس وقد استدل رسولنا الكريم بما جاء في القرآن الكريم من دعوة إلى تناول الحلال في كافة وجوه الحياة ولذلك فقد فسر القرطبى قوله تعالى: (كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ) بأن المراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه، وقيل الأكل المعتاد"[١].

ويوضح ذلك صورة الرجل الذي مثل به الرسول -صلى الله عليه وسلم- ذلك الرجل الذى يسعى يدعو الله ويتضرع إليه متوسلاً أشعث أغبر "يارب يا رب" ويخبرنا رسولنا الكريم إن هذا الرجل الذى يدعو الله لا تنطبق عليه شروط استجابة الدعوة لأن مطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، فأنى يستجاب له؟ أى يستبعد أن يستجاب له.

وتناول النحويون معنى "أنّى" بأنها تأتى في بعض الأحيان بمعنى كيف وقد تأتى بمعنى أين يقول سيبويه "أنها تكون في معنى كيف وأين[٢]" ويرى السيوطى أنها عندما تستعمل بمعنى كيف لا يليها إلا فعل نحو "أنى يحيى هذه الله بعد موتها"[٣]. ومن ذلك: "أنى لك هذا" والاستفهام فى الحديث يفيد الاستنكار والاستبعاد أى يستبعد أن يستجاب لهؤلاء الذين يأكلون ويلبسون حرام.

جاء الاستفهام بعد عدة مقدمات بدأها بقوله: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا"، ثم ذكر الأدلة من القرآن الكريم، ثم ضرب مثلاً من الواقع هو أن الرجل يدعو الله وينتظر الاستجابة وكله حرام في حرام فكانت النتيجة هذا الاستفهام الموجز الذى ختم به حديثه فأنى يستجاب له؟

---

(١) السابق، جـ٢، ٢١٥.

(٢) سيبويه، الكتاب، جـ٥/٢٣٥ .

(٣) جلال الدين السيوطى، شرح عقود الجمان، في علم المعاني والبيان.

وهذا مثال استفهام آخر ختم به رسولنا الكريم حديثه ليدلل على ضآلة الدنيا وحقارتها بعد أن ضرب مثلاً يوضح فيه حجمها بالنسبة للآخرة وذلك فيما روى عن مستورد بن شداد أخى بن فهر يقول: قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه - وأشار يحيى[١] بالسبابة - في أليم فلينظر بم يرجع[٢]؟**".

شرح النووى الحديث بقوله: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها وفناء لذاتها ودوام الآخرة ودوام لذاتها ونعميها إلا كنسبة الماء الذى يعلق بالإصبع إلى باقى الماء"[٣].

والحديث رغم إيجازه إلا أنه قدم صورة سريعة لحقيقة ما يتصارع عليه الناس من الحياة الدنيا وكل ما فيها من مال ونفوذ وقوة بأنه ضئيل، وجمع بين العديد من الفنون البلاغية وكلها لتأكيد أن الدنيا زهيدة قصيرة فاستخدم القسم (والله) وأسلوب القصر الذى لاحظنا أنه يكثر في الحديث النبوى "**ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه..**"

ثم ختم الحديث بالاستفهام الإنكارى الذى يفيد التحقير أى لن يرجع بشئ ذى بال.

واستخدام الرسول الإشارة بالسبابة وما تحمل من معنى إذا وضعت في البحر ليدلل على مدى الضآلة، وهى وسيلة تعليمية عملية لتقريب المعنى للمخاطبين، وإبراز القيم المعنوية في صورة حسية ملموسة.

---

(١) يحيى أحد رواه الحديث في سلسلة الإسناد.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، جـ١٧/١٩٢.

(٣) المرجع السابق.

وكان لختم الحديث بالاستفهام "بم يرجع؟" بعد الحقيقة التى وضحها لهم دوراً هاماً في الإقناع.

وقد ووردت ما الاستفهامية مجرورة في الحديث الشريف بالباء ولذلك لزم حذف الألف كما قال النحاة "أنه يجب حذف ألف ما الاستفهامية إذا وقعت مجرورة وأن تبقى الفتحة دليلاً على الألف"[١].

رأينا في الأحاديث السابقة كيف مهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- بعرض فكرة محددة ثم ختم الحديث بالاستفهام إما تأكيداً لفكرته أو استنتاجاً لما سبق.

وفي طائفة أخرى من الأحاديث يأتى الاستفهام في خاتمة الحديث أيضاً، ولكن بعد حادثة معينة أو تساؤل من أحد الحاضرين لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما جاء في حديث الأعرابى الذى روته السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: **جاء أعرابى إلى النبى -صلى الله عليه وسلم- فقال: أتقبلون صبيانكم فما نقبلهم؟**

فقال النبى -صلى الله عليه وسلم: "أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟"[٢].

يوضح الحديث قيمة من القيم الإنسانية النبيلة التى يحتاج إليها المجتمع في كل زمان ومكان ألا وهى التراحم والتعاطف، فقد لفت الإعرابى تقبيل الرسول لأحفاده وحنو عليهم ولم يدرك بمورثه البدوى الجاف وما يتسم به من غلظة الطباع، وقسوة القلب حكمة سلوك الرسول، فطرح سؤاله أتقبلون صبيانكم؟ وهو استفهام بلهجة الاستنكار والرفض لهذا الفعل ثم أكد

---

(١) جمال الدين بن هشام الأنصاري، مغنى اللبيب، دار إحياء الكتب العربية، جـ١، ٣٣٠.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الفضائل، جـ١٥/٧٦.

إنكاره "فما نقبلهم" ودخول ما النافية على الفعل المضارع الدال على الحال والمستقبل فيها إصرار منه على رفض تقبيل أبنائه، والإشارة إلى تقبيل الصبيان كما جاء في الحديث المقصود منه تدليل الأبناء والرفق بهم والحنو عليهم وإشاعة الألفة والمودة بينهم وبين آبائهم وهو ما لم يفهمه.

ولذلك كان جواب الرسول -صلى الله عليه وسلم- على استفهامه باستفهام آخر وهو **"أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟"** وهو استفهام إنكارى للتبكيت والتوبيخ ويقصد منه "تقريع المستفهم عنه بذكر ما يستقبح من مثله للومه عليه[1]. وكما قال القزوينى: "الغرض بذلك تنبيه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيخجل أو يرتدع"[2].

وأسلوب الاستفهام هنا المكون من الواو تسبقها همزة الاستفهام ثم المستفهم عنه، وغالباً ما تكون الواو والفاء مرتبطتين بكلام سابق أو لاحق يتعلق به دلالة جملة الاستفهام وقد يكون الكلام مقدراً أو ظاهراً[3]، وكما يقول ابن فارس "وتكون الواو عطفاً بالبناء على كلام يتوهم"[4].

وكأنه يقول له هل أملك لكل بعث الرحمة والشفقة في قلبك على أولادك وقد نزعها الله منك.

وفي هذا تنبيه للأعرابى أن يرجع عن جفوة أولاده والقسوة عليهم ويتعلم من سلوك رسولنا الكريم.

(١) الخطيب القزوينى، الإيضاح، دار الجيل، لبنان، ص٨٢.

(٢) المرجع السابق.

(٣) د.حسنى عبد الجليل، أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلى، ص١١٥.

(٤) أحمد بن فارس، الصاحبى في فقه اللغة، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٧٧، ص١٥٧.

كما استعمل النبى -صلى الله عليه وسلم- الاستفهام فى خاتمة الحديث التالى لينبه المخاطبين إلى أن فطرة الإنسان القويمة لا تقبل إلا الإيمان وذلك فيما رواه سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج[1] البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟[2]" ثم يقول أبو هريرة: "واقرؤا إن شئتم فطرة الله التى فطر الناس عليهم لا تبديل لخلق الله"**[3][4].

يبدأ الحديث بعرض الفكرة الرئيسة التى يدور حولها ثم يختم بالاستفهام ويوضح ابن الأثير فكرة الحديث في غريبه: "بأن المولود يولد على نوع من الجبلة وهى فطرة الله تعالى، وكونه متهيئا لقبول الحق طبعاً وطوعاً، لو خلته شياطين الأنس والجن وما يختار لم يختار غيرها. فضرب لذلك الجمعاء والجدعاء مثلاً" يعنى أن البهيمة تولد مجتمعة الخلق سوية الأطراف سليمة من الجدع، لولا تعرض الناس إليها لبقيت كما ولدت سليمة"[5]. فرسولنا الكريم يؤكد على أن فطرة الإنسان التى فطر عليها هى عبادة خالقها سبحانه وتعالى وصرف الإنسان عن عبادة الله سبحانه تغيير للفطرة، "ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها إلى

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة، جـ١٦/٢٠٧.

(2) تنتج: أى تلد يقال نتجت بضم النون وكسر التاء الناقة إذا ولدت، فهي منتوجة وأنتجت إذا حملت.

(3) جدعاء: المقطوعة الأنف والأذن مشقوقتهما والمراد هنا التى ليست ناقصة شيئاً من أعضائها.

(4) صحيح مسلم بشرح النووى، جـ١٦/٢٠٧.

(5) ابن الأثير الجزرى، النهاية في غريب الحديث، جـ٢/١٤٣.

حالتها التى خلقت عليها، فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة ومن لم يستجب لهم استمر على تغيير الفطرة وفسادها"[١].

والاستفهام الذى طرحه الرسول في نهاية الحديث وثيق الصلة بما سبق من الحديث من حيث الفكرة والبنية.

"هل تحسون فيها من جدعاء؟" فهو استفهام إنكاري؛ أى لا تحسون فيها بتشوه أو نقص لأن فطرة الله دائماً صحيحة سليمة، والغرض من الاستفهام هنا التحقيق والتأكيد لما سبق أن بينه في صدر الحديث الشريف" فكان الاستفهام هو خلاصة للموضوع الذى طرحه في الحديث ومثل له.

ومن الأحاديث التى ختمت باستفهام ويضع أمام أعين المخاطبين واقعة هامة من حياة الرسول الله المثل والقدوة.

ما روى عن عائشة قالت :**كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه قالت عائشة: "يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة أفلا أكون عبداً شكورا؟"**[٢]. والاستفهام للتقرير الغرض منه الترغيب والحض على شكر الله سبحانه وتعالى كما أنه تعليلاً لما سبق فعائشة تسأل النبى -صلى الله عليه وسلم- لماذا ترهق نفسك في الصلاة حتى تشققت قدماك وأنت تعلم أن الله

---

(١) ابن قيم الجوزية، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ، تحقيق: محمد حامد الفقي، جـ٢/١٥٨، مطبعة مصطفى الحلبى، ١٩٣٩.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى، جـ١٧/١٦٢.

وقد اهتم النووى بتوضيح ألفاظ الحديث بقوله "الشكر: معرفة إحسان المحسن والتحدث به، وسميت المجازاة على فعل الجميل شكراً لأنها تتضمن الثناء عليه وشكر العبد الله تعالى اعترافه بنعمة ثناؤه عليه وتمام مواظبته على طاعته ولما شكر الله تعالى أفعال عبادة فمجازاته إياهم عليها وتضعيف ثوابها.. والمشكور من أسمائه سبحانه وتعالى".

سبحانه وتعالى قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فكان جواب الرسول -صلى الله عليه وسلم- الاستفهام المكون من الهمزة الداخلة على الفعل المضارع- وهى كثيرة في الاستفهام النبوى - تعليلاً للمداومة على ما سبق، وتبريراً لحدوثه، وجعله واجباً لا يمكن أن يتهاون فيه.

وقد وضع النووى هذا الحديث في باب "إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة"[١] إشارة إلى صلاة الرسول وقيامه الليل شكراً لله سبحانه وتعالى. كما ورد الاستفهام فى خاتمة الحديث ليلخص حكمة صائبة أراد الرسول تنبيه المخاطبين إليها وذلك فى قوله صلى الله عليه وسلم: **"فإنى استعمل الرجل منكم على العمل بما ولانى الله عز وجل - فيأتى فيقول: هذا لكم وهذا أهدى إلىّ".**

"أفلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه حتى تأتيه هديته؟ إن كان صادقاً"

فهذا الحديث يقدم موضوعا مستقلاً يحدد مبدأ هاماً من مبادئ الإسلام هو أنه لا يحق للوالى على مال الأمة أن يقبل الهدايا من أفراد الأمة طالما هو مسئول عن رعاية مصالحها وأمورها.

وأسلوب الاستفهام مكون من الهمزة وفاء العاطفة الداخلة على أداة النفى لا والمستفهم منه الفعل الماضى "جلس" ويلاحظ أن الهمزة فصل بينها وبين لا بالفاء العاطفة، وأصل التركيب فألا فأصل القول فألا جلس في بيت أبيه وأمه. قال ابن مالك: "فالأصل أن يجاء بالهمزة بعد العاطف كما جئ بعده بأخواتها، فكان يقال في أفتطمعون فأتطمعون، لأن أداة الاستفهام جزء من جملة الاستفهام، وهى معطوفة على ما قبلها من الجمل، والعاطف لا

---

(١) المرجع السابق.

يتقدم عليه جزء مما عطف، ولكن خُصّتْ الهمزة بتقديمها على العاطف تنبيها على أنها أصل أدوات الاستفهام، لأن الاستفهام له صدر الكلام"[١].

وورد الاستفهام بعد مقدمة فيها تعريض بالعامل الذى اختاره الرسول -صلى الله عليه وسلم- على القوم مسئولا ومصدقا وراعيا على القوم ونلاحظ أن الخطاب لم يحدد شخصا بعينه أو موقفا محددا، أو حدثا مباشرا، وإنما هو يوجه الخطاب لكل من اختاره عاملاً ومصدقا لمصر من الأمصار ولذلك جاء برجل نكرة. وختم بالاستفهام "أفلا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا؟

وهو استفهام إنكارى الغرض منه التقريع والتبكيت وهو خير ختام للحديث.

وفى خاتمة هذا المبحث نرى أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- كما اهتم بافتتاح الحديث اهتم أيضا بخاتمة الحديث ووظفها توظيفا فعالاً في خدمة أهدافه التعليمية والإرشادية للمسلمين لأنه كما يحسن الافتتاح فإنه يفضل خواتم الكلام القاطعة ويوضح ابن رشيق أهمية خواتم الكلام بقوله: وخاتمة الكلام أبقى فى السمع وألصق بالنفس، لقرب العهد بها؛ فإن حسنت حسن، وإن قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها، كما قال الرسول -صلى الله عليه وسلم-[٢] وأكد السيوطى أهمية هذا المنحى فى كلامه عن خواتم السور "أنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعانى البديعة، مع إيذان السامع بانتهاء الكلام، حتى لا يبقى معه للنفس تشوق إلى ما يذكر بعده"[٣].

---

(١) أبو على السن بن رشيق، العمدة، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط٣، جـ١/٢١٧، ١٩٦٣.

(٢) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، جمال الدين محمد عبد الله ابن مالك النحوى، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبد الباقى، مكتبة العروبة، ١٢/١١.

(٣) جلال الدين السيوطى، الإتقان، ص٤٥٢.

جدول الاستفهام فى وسط الحديث أو فى خاتمته

م	صيغة الاستفهام (بعد مقدمة)	الإجابة
١	هل ترون ما أرى؟ أنى لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر.	--
٢	ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه؟ أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع فى وجه؟	--
٣	فحدثونى ما هى؟	قالوا حدثنا ما هى
	صيغة الاستفهام (فى خاتمة الحديث)	الإجابة
	مطعمة حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذى بالحرام.	--
١	فأنى يستجاب له؟	--
٢	والله ما الدنيا فى الآخرة إلا فعل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه (أشار بالسبابة فى اليم فلينظر بم يرجع)؟	--
٣	أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟	--
٤	هل تحسون فيها من جدعاء؟	--
٥	أفلا أكون عبداً شكوراً؟	--
٦	أفلا جلس فى بيت أبيه أو بيت أمه حتى تأتيه هديته؟ إن كان صادقا.	--

المبحث الثالث
الاستفهام الحواري أو فى سياق قصصى

أن السؤال والحوار سمة غالبة على الحديث النبوي، لأنه حديث نبي إلى قومه، يعلمهم، ويجيب أسئلتهم، ويصحح أخطاءهم، ويلبي دعواتهم.

وقد سماه البعض الحوار الاستفهامي وهو يكشف عن فاعلية أسلوب الاستفهام وإمكاناته الفنية والموضوعية فهو يكون بين شخصيين يتحاوران، ودائماً الاستفهام الذى يقوم على الحوار اى السؤال والجواب يكسب السياق حركة تعبيرية تقترب من مستوى التعبير الدرامي[١]. كما يكسب الاستفهام حيوية ويدفع بالأحداث وكأنه يساعد على تدرج الأفكار وتصعيدها إلى أن تصل إلى الغاية التى يهدف إليها المحاور. "وكثير من الأحاديث النبوية بل جلها، تشمل من الحوار والحياة والحركة ما تمثل واقعا ملموساً وحياة حقيقية تشعر القارئ أنه يكاد يحس بشئ يراه ويسمعه ويتأثر به، ويحس بمرور الدقائق والساعات وكأنه يعيش معهم، ويحس بالحوار وتبادل الرأى كأنه يشاركهم مجلسهم، ويلمس الانفعالات والإيماءات كأنه أحد الجالسين لرسول الله صلى الله عليه وسلم[٢].

ويبدو لى أن كثرة الأحاديث التى تقوم على الحوار يرجع لاحتياج المجتمع الإسلامى الناشئ في هذه الفترة المبكرة لكثير من المعطيات الفكرية والاجتماعية والعقائدية، مما تولد عنه لغة التحاور بين الرسول والصحابة فكل يوم كان يفاجئهم بجديد لم يألفوه في بيئتهم الجاهلية. فإن لم يبادرهم

---

(١) د.حسني عبد الجليل: أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، ص .

(٢) د.عودة خليل، بناء الجملة فى الحديث، ص١٣٦ .

بتعريفه به يسألونه، ويحاورنه ويستقصون في المعرفة لتبليغه لإخوانهم وصحابتهم.

ولما كانت هذه الأحاديث تتسم بالكثرة في عددها، والطول في بنيها، لذلك اعتمدت على انتقاء مجموعة منها تقوم على السؤال والجواب الرسول -صلى الله عليه وسلم- وبين الصحابة وإن كنت أفردت الاستفهام الحقيقى الذى يتضمن الحوار بعنوان منفصل كما أفردت الاستفهام بدون أداة بعنوان منفصل أيضاً.

١- الاستفهام الحواري :

ومن الاستفهام الحواري في الحديث النبوي، ما ورد عن أبي هريرة: **"جاء رجل من بني فزارة إلى النبي صلى الله عليه وسلم - فقال: إن امرأتى ولدت غلاماً أسود - وهو حينئذ يُعرّض بأن ينفيه، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم- "هل لك من إبل"؟**

قال: نعم.

قال: فما ألوانها؟

قال: حمر.

قال: هل فيها من أورق؟(١)

قال: إن فيها لورقاً.

قال: فأنّى أتاها ذلك؟

(١) الأورق من الإبل: "الذى فى لونه بياض إلى سواد، والأورق أطيب الإبل لحماً وأقلها شدة على العمل والسير وليس بمحمود عندهم فى عمله وسيره"، لسان العرب، جـ٩/٢٧٩ مادة (ورق).

قال: عسى أن يكون نزعة عرق.

قال: وهذا عسى أن تكون نزعة عرق. ولم يُرخِّصْ له في الانتفاء منه[1].

توالت الأسئلة من النبى -صلى الله عليه وسلم- لذلك الرجل الذى يُعرِّض بزوجة عندما ولدت غلاماً أسود. لقد تركه -صلى الله عليه وسلم- يستخلص الحجة بنفسه، ولم يقررها هو حتى لا يحس بأن شيئاً فرض عليه، وكان هذا الحوار الحي مفحماً للرجل عن طريق الموازنة، وواضح أنه اعتمد على ما هو معروف عند المخاطب الذى كان له إبل"[2].

واستعمل الرسول -صلى الله عليه وسلم- أسلوب الحكيم في مخاطبة الرجل فالرجل يسأل عن ابنه الأسود ويريد نفيه، والرسول يسأله عن إبله وألوانها، وذلك ليوجه نظره إلى أنه ليس من الضرورى أن يشبه أبيه أو جده فقد تمتد وراثته ليرث صفات أحد أجداده السابقين، وإذا كان يتقبل ذلك بالنسبة للابل فلما لا يتقبل لون ابنه. وهو يضرب له مثلاً بالإبل ليعلمه القياس وحتى يستنتج بنفسه الإجابة فيكون أكثر فهماً للأمر وأشد اقتناعاً، ويوقن بأن ما ذهب إليه من تعريض بزوجه وتجنى وسوء ظن لا يليق به. وهذا الحوار أجدى من التقريع أو زجره ونهيه مباشرة عن التعريض بزوجه.

والاستفهام الأول: هل لك من إبل؟ مكون من هل مع الجار والمجرور مع "من" ثم اسم نكره وهو إبل. ومن زائدة للتوكيد[3]. وهى لا

---

(1) صحيح مسلم، كتاب اللعان، جـ١٠/١٣٣، صحيح البخاري، جـ٦٨/٧.

(2) محمد الصباغ: التصوير الفني في الحديث النبوى، ص٥١٨.

(3) الهروى، الأزهية في علم الحروف، تحقيق: عبد المعين الملوحي، دمشق ١٩٧١، ص٢٣٤.

تدخل على المعرفة[1]" كما دخلت على "هل لك من إبل؟" فمن فيها زائدة للتأكيد أيضاً.

والاستفهام الثانى: "هل فيها من أورق" والاستفهام فيه يفيد الرجاء والالتماس أن يكون له إبل وأن يكون فيها أورق. وذلك ليؤكد له إنه ليس بعجيب أن يكون له غلاماً أسود. ويرى ابن هشام أن "من" تأتى لتوكيد العموم وشرط زيادتها ثلاثة أمور: أحدهما: تقدم نفي أو نهى أو استفهام، والثاني: تنكير مجرورها، والثالث: كونه فاعلاً أو مفعول به مبتدأ"[2].

وأما الاستفهام الثالث: فأنىً أتاها ذلك؟ فهو استمرار في التحاور مع الرجل ودفعه للتفكير حتى يستنتج بنفسه حقيقة الأمر بأنه لا غرابة في أن ينجب غلاماً يختلف في لونه عنه فقد يكون أحد أجداده أسود.

يقول ابن حجر العسقلانى: "أى من أين أتاها اللون الذي خالفها؟"[3]. وفي الحديث "تشبيه المجهول بالمعلوم تقريباً لفهم السائل، واستدل به لصحة العمل بالقياس، قال الخطابي: هو أصل في قياس الشبه، وقال ابن العربي: "فيه دليل على صحة القياس والاعتبار بالنظير"[4].

وفي حوار آخر قصير يبادر الأعرابى الرسول -صلى الله عليه وسلم- **"متى الساعة؟ قال له رسول الله: ما أعددت لها؟ قال حب الله ورسوله- قال: أنت مع من أحببت"**[5].

---

(1) المرجع السابق.

(2) ابن هشام، مغنى اللبيب، ص٣٢٢، ٣٢٣.

(3) فتح الباري شرح صحيح البخاري، جـ٩/٥٢٤.

(4) فتح الباري، جـ٩/٥٢٥.

(5) النووى، صحيح مسلم، باب البر والصلة والآداب، جـ١٦/١٨٦.

حوار قصير يتضمن معان كثيرة فهو يسأل متى الساعة؟ ولا يحمل ذخيرة لهذا اليوم إلا حب الله ورسوله، وفى إجابة النبى -صلى الله عليه وسلم- له بسؤال آخر ما أعددت لها؟ تنبيه له بضرورة إعداد نفسه لهذا اليوم العظيم، ولكن الأعرابى أجاب بتلقائية شديدة وتفاؤل إنه لم يعد لهذا اليوم شيئاً إلا حب الله ورسوله، وقد لمس الرسول فى إجابته الصدق ولذلك بشره بقوله أنت مع من أحببت.

والاستفهام الصادر من الأعرابى متى الساعة؟ يفيد الاستبطاء وتعجل ليوم القيامة، "لأن متى إنما يريد بها أن يوقت لك وقتاً ولا تريد بها عدداً، فإنما الجواب فيه: اليوم أو يوم كذا، أو شهر كذا أو سنة كذا أو الآن أو حينئذ أو أشباه هذا"[1]، ولم يجب الرسول على سؤاله وإنما طرح سؤال آخر ما أعددت لها؟ وتوجيهه إلى سؤال آخر يسمى بأسلوب الحكيم أى يوجهه إلى وجهة أخرى من الموضوع وهو ما أعددت للآخرة، وهل أنت مستعد لذلك اليوم المهول؟

والحوار بين الرسول وصحابته وسيلة لتقديم صورة رائعة له بين أصحابه هادياً ومعلماً، ورفيقاً لهم يلجئون إليه يسئلون، ويتشاورن ويشكون.

ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: **"ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى، والنعيم المقيم فقال: وما ذاك؟**

قالوا: يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق.

---

(1) سيبويه، الكتاب، جـ١/٢١٧، جـ٤/٢٣٣.

"فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم"؟

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: تسبحون، وتكبرون، وتحمَدُون دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين مرة...."[1].

صدر عن الرسول في تحاوره مع فقراء المهاجرين أكثر من تساؤل الأول عندما ذهبوا إليه يشكون فقرهم وأن أهل الدثور[2] بما لديهم فاقوهم في بعض النوافل. فأشار عليهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- بالذكر والتسبيح دبر كل صلاة وهو الطريق الذى لا يفضله طريق للعبادة والتقرب لله. وفى قوله"وما ذاك؟" استفهام حقيقي وهو "طلب العلم بشئ لم يكن معلوماً من قبل بأداة خاصة". فهو لا يعلم ماذا يقصدون بقولهم: "ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى...." فلما أخبروه بأنهم يفوقونهم في بعض الأعمال الصالحة كالتصدق والعتق، كان الاستفهام الثانى: أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم؟ وهو استفهام تقريرى للعرض والترغيب. وقد ورد هذا التركيب الاستفهامى (أفلا أعلمكم) في مواضع عديدة في الأحاديث -كما أشرنا آنفا- فإن همزة الاستفهام فصل بينها وبين لا بالفاء العاطفة وأصل التركيب "فألا أعلمكم" لأنه من خصائص الهمزة دون غيرها من أدوات الاستفهام تسبق حروف العطف[3].

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، جـ٥/٩٣ - أهل الدثور: دَثور: خامل مستتر.

(2) جاء فى لسان العرب، قال أبو عبيدة: واحد الدثور "دثر" وهو المال الكثير، يقال هم أهل دثر ودثور، جـ٣/٢٩٦.

(3) ابن هشام، مغنى اللبيب، جـ١/١٤.

والاستفهام كما نرى هنا هو البنية الأساسية لجمل الحديث الذى قام عليه توجيه الرسول لصحابته، وتعليمهم، وكان أيسر الوسائل التعبيرية وأوضحها للمخاطبين، وأكثرها مباشرة.

وتتعدد صور الحديث التى تتخذ من الحوار الاستفهامى أداة لتعليم المخاطبين وتذكيرهم بشئون الدنيا والدين ولفت أنظارهم إلى كثير مما يجهلونه أو يغفلون عنه.

ومن ذلك ما رواه عوف بن مالك الأشجعى قال: **"كنا عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم- تسعة، أو ثمانية، أو سبعة فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله. ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟ فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟**

قال فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله فعلام نبايعك؟ قال: على أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا "وأسر كلمة خفية". ولا تسألوا الناس شيئاً، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه"[1].

كرر النبى -صلى الله عليه وسلم- الاستفهام ثلاث مرات ألا تبايعون رسول الله؟ وهو استفهام تقريرى للعرض والتنبيه. فهذا التكرار يقتضى تنبيههم وشدة انصاتهم لما يحدثهم به ويذكرهم به وهو النهي عن المسألة وسؤال الناس الحاجة وقد ذكره بعد أن ذكر الفروض توحيد الله والصلوات وإن كان هذا يدل على شئ فهو يدل على استقباح سؤال الناس الحاجة.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، جـ٧/١٣٢.

وكما عهدنا من رسولنا الكريم في خطابه للصحابة مناقشاً أو معاتباً أو مبشراً يتطلف في حديثه ويتخذ من التذكير والنبيه وسيلة فهذا حديث يحكى لنا موقفاً هاماً في حياة الرسول والمسلمين كان الاستفهام فيه الأداة الطيعة لإدارة الحوار وبيان حقيقة الأمر للأنصار.

عن أبى البتاح قال سمعت أنس بن مالك قال: "**لما فتحت مكة قسم الغنائم في قريش فقالت الأنصار أن هذا لهو العجب، إن سيوفنا تقطر من دمائهم وإن غنائمنا ترد عليهم فبلغ ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فجمعهم فقال: ما الذى بلغنى عنكم؟**

قالوا: هو الذى بلغك وكانوا لا يكذبون.

قال: أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا إلى بيوتهم وترجعون برسول الله إلى بيوتكم؟ لو سلك الناس وادياً أو شعباً وسلكت الأنصار وادياً أو شعباً لسلكت وادي الأنصار أو شعب الأنصار"[1].

في هذا الحديث إشارة إلى فضيلة الأنصار ورحجانهم كما قال النووي، ضم أكثر من أسلوب استفهام، **الاستفهام الأول** ما الذى بلغنى عنكم؟ وهو استفهام إنكاري يؤنبهم على غضبهم واعتراضهم لإعطائه قريش الغنائم وكأنه لم يكن يتوقع منهم انتظار الغنائم بل الفرح بقدومه معهم.

والاستفهام الثاني: أما ترضون أن يرجع الناس بالدنيا إلى بيوتهم وترجعون برسول الله إلى بيوتكم؟ فيه تعليل وبيان لما صدر منه من استنكار في الاستفهام الأول، لأنهم لما أجابوا (هو الذى بلغك) فكأنهم لم يفهموا حقيقة الأمر، وقيمة ما آثرهم به الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصروا على موقفهم. ولذلك فقد طرح عليهم هذا الاستفهام التقريري، ويقال أن أما هنا

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزكاة، جـ٧/١٥٢.

تفيد العرض. ولكننا نظن أنها جمعت مع العرض التعجب من عدم رضاهم بهذه القسمة فقد أعطى الغنائم والأموال وما تتضمنه من معانى زينة الدنيا إلى أهل مكة وآثر الأنصار الذين طالما ناصروه وعضدوه بإقامته بينهم ينهلون من فيض إيمانه ويتزود من نور حكمته[1]. وهذا مثال آخر استعمل فيه النبى أداة العرض آلا فى أسلوب الاستفهام وفيه ينفى أن الميت يعذب ببكاء أهله ولكن يعذب بما يرتكب من آثام وذلك فيما روى عن عبد الله بن عمر قال: **اشتكى سعد بن عبادة شكوى له فأتى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعوده مع عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن مسعود" فلما دخل عليها وجده في غشية فقال: أقد قضى؟ قالوا: لا يا رسول الله، فبكى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلما رأى القوم بكاء رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بكوا فقال: ألا تسمعون؟ إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بهذا وأشار إلى لسانه، أو يرحم".**

يقول النووى من فوائد الحديث: "استحباب عيادة المريض، وعيادة الفاضل والمفضول، وعيادة الإمام والقاضى والعالم وأتباعه"[2].

وفي الحديث أكثر من استفهام تشكلت منه بنية الحديث.

الاستفهام الأول: أقد قضى؟ ودخول الاستفهام بالهمزة على قد التى تفيد التحقيق نادر الوجود في الحديث الشريف، وهو استفهام حقيقى لأنه رآه في غشية ظنه مات فقال متسائلاً على سبيل طلب الفهم لحقيقة حالته أقد قضى؟ فقالوا: لا يا رسول الله... وتبع ذلك بكاء رسولنا -صلى الله عليه وسلم- وبكاء القوم معه، ولكنه طرح استفهاماً ثانياً بقوله: ألا تسمعون إن الله لا يعذب بدمع العين...

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، جـ٦/٢٢٦.

(٢) علم المعاني – عبد العزيز عتيق، ص١١٨.

وألا من أدوات العرض: يقول د/ عتيق: "ألا بفتح الهمزة وتخفيف اللام، وأما بفتح الهمزة تخفيف الميم تختص كلتا الأداتين إذا كان للعرض بالدخول على الجملة الفعلية نحو قوله تعالى: **"ألا تُحِبُّونَ أنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لكُمْ"** ومعناه طلب الشئ بلين ورفق[1]، وفي قوله ألا تسمعون: يفيد التنبيه والتأكيد، أي اسمعوا وتنبهوا لما أقول: إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يعذب بما يرتكب الإنسان من آثام، وأشار إلى اللسان بوصفه أداة ارتكاب المنكر كالغيبة والنميمة وغيرها ثم تدارك ونكرهم برحمة الله فقال "أو يرحم".

وعن معاذ بن جبل قال: **"كنت ردف النبي -صلى الله عليه وسلم- ليس بيني وبينه إلا مؤخرة الرجل، فقال يا معاذ بن جبل قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت: لبيك رسول الله وسعديك. قال: هل تدري ما حق الله على العباد؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل قلت لبيك رسول الله وسعديك. قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: أن لا يعذبهم"**[2].

وفي هذا الحديث الشريف نشعر بالحركة وبالدقائق تمر وبالحوار المسموع، وبأنفاس معاذ بن جبل وهو ينتظر كلام الرسول وسؤاله بعدما ناداه ثلاث مرات بين كل مرة والأخرى ساعة واستفهام الرسول بعد ذلك: هل تدري ما حق الله على العباد؟ ثم السؤال الثاني: هل تدري ما حق العباد

---

(١) عبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، جـ١/٢٣٢.

على الله؟ هو استفهام من العالم بالأمر إلى غير العالم والغرض منه التنبيه إلى أهمية ما يقول. ولذلك فقد بدأ رسول الله بالنداء ثلاث مرات على معاذ بن جبل الذى يردفه وبين كل مرة والأخرى ساعة حتى يشعر بأهمية ما يقول ومكانته وجعله يؤهل نفسه لسماع ما يقوله رسول الله فيشحذ حواسه لذلك.

وهو يؤكد على حقيقة قائمة لابد أن يعيها العباد وهى أصل الأديان والرسالات وهى حق الله على الناس عبادته وعدم الشرك به.

وقابل هذا السؤال وإجابته بسؤال ثان وهو: هل تدري ما حق العباد على الله؟ وحق العباد على الله ألا يعذبهم. ويفهم منه أنه لا يعذبهم إذا هم عبدوه ولم يشركوا به شئ فإذا أدوا حق الله أدى الله سبحانه لهم حقهم.

٢- الاستفهام في سياق الحوار القصصي :

هو الاستفهام الذى يشكل جزء من بنية الحديث ويحتوى على قصة يرويها الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو قصة مروية عن الرسول وبها استفهام صادر منه.

ويمثله حديث الواعظ الذى رواه أسامة بن زيد قال: "سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: **يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتنلق أقتاب بطنه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ يقول: بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه**"[١].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله، جـ١٨/١١٧، ١١٨.

يقدم هذا الحديث أقصوصه موجزة، قوامها الحوار الدرامي بين أهل النار وواعظ كانوا يستمعون إليه والاستفهام في هذه الأقصوصة يُكون النسيج المحوري لها وهو يجمع بين الاستفهام الحقيقي والمجازي؛ "يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ قال صاحب جواهر الأدب "أصل الهمزة لطلب فهم ما بعدها، لأن أصل باب الاستفعال السؤال، وحقها أن يليها ما يتوجه السؤال إليه"[١].

ويقول المالقي: "عن أحوال "لم" عندما تدخل عليها همزة الاستفهام أن الهمزة اللاحقة لها تصير الكلام تقريراً، أو توبيخاً فإذا قال القائل: ألم تقم ألم أحسن إليك، فكأن المعنى: أشكر ما فعلت معك، أو تنساه أو شبه ذلك"[٢]. والاستفهام هنا جمع بين التقرير والتوبيخ، أى لقد كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتدعونا لذلك ولم نصغ إليك وكان مآلنا إلى النار. فكيف وأنت العالم بعواقب الأمور وطالما حذرتنا منها، لا تلتزم بما قلت؟ فالاستفهام فيه توبيخ له لنفاقه وإدعائه النقاء والورع كذباً وبهتاناً. ولا يتنافى ذلك مع كون الاستفهام هنا يضم الاستفهام الحقيقى أيضاً فهم كانوا يجهلون حقيقته وتعجبوا لرؤيته بينهم.

ومن الاستفهام الوارد فى السياق القصصى ما رواه أبو هريرة أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- **"مرَّ على صُبرة[٣] طعام فأدخل يده فيها**

---

[١] جواهر الأدب في معرفة كلام العرب – علاء الدين الأربلى – تحقيق: حامد أحمد نيل، ط ١٩٨٤، ص٢٧.

[٢] رصف المباني في شرح حروف المعاني، أحمد بن عبد النور المالقي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٨٥ ص٣٥٠.

[٣] صُبْره: بضم الصاد وإسكان الباء قال الأزهري: الصبرة الكومة المجموعة من الطعام سميت صبرة لإفراغ بعضها على بعض. ومنه قيل للسحاب فوق السحاب صبير، وفي لسان العرب ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن بعضه فوق بعض، مادة ص ر ب.

فنالت أصابعه بللاً فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني"[1].

الحديث تسجيل حي لواقعة إنسانية تكشف عن رعاية الرسول -صلى الله عليه وسلم- لأصحابه فهو يمر على كومة من طعام فيختبر مدى صلاحيتها بوضع يده فيها ثم توجه بالسؤال إلى البائع معاتباً ما هذا يا صاحب الطعام؟ ولم يقبل تبرير صاحب الطعام.

وهذا الحديث فيه تصعيد فكل موقف يفضي للموقف التالي له إلى أن يصل إلى ذروته وهو طرح الاستفهام الذى هو الغرض من هذا التصعيد.

والاستفهام الأول: "ما هذا؟" وهو يفيد التقريع والتوبيخ.

والاستفهام الثاني: "أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟" استفهام تقريري يفيد التحضيض أى طلب الشئ برفق؛ وهو أجدى وأقوى أثراً من الأمر المباشر للبائع، وهو من رسولنا الكريم تأدبا ورفقا بهذا البائع، لأنه من البديهي أن ينصاع هذا الرجل وكل مسلم لأمر الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولكنه فضل أن يعلمه برفق وحكمة وختم الحديث بالتحذير "من غش فليس مني" ويكفي هذا زجراً للبائع.

وتتضافر الأحداث فى وحدة رائعة لتصور جانب من حياة الرسول الأسرية وذلك فيما روى عن عائشة رضى الله عنها قالت: **"أرسل أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- فاطمة بنت رسول الله -صل الله عليه وسلم- إلى رسول الله فاستأذنت عليه وهو مضطجع معى في مرطى، فأذن لها، فقالت: يا رسول الله إن أزواجك أرسلننى إليك يسألنك العدل في ابنة أبي**

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، جـ٢/١٠٩.

قحافة، وأنا ساكتة قالت: فقال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: أى بنية ألست تحبين ما أحب؟ فقالت: بلى. قالت: فأحبّى هذه. قالت: فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فرجعت إلى أزواج النبى -صلى الله عليه وسلم- فأخبرتهن بالذى قالت، والذى قال لها رسول الله -صلى الله عليه وسلم-"[1].

تروى عائشة رضى الله عنها - حادثة تخص آل بيت الرسول تكشف عن جانب إنسانى دقيق في حياته يحتاج المسلمون إلى معرفته، توقف النووي عند قول فاطمة رضى الله عنها: "يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة" موضحاً المقصود بها "يسألنك التسوية بينهن في محبة القلب، وكان -صلى الله عليه وسلم- يسوى بينهن في الأفعال والمبيت ونحوه، وأما محبة القلب فكان يحب عائشة أكثر منهن.. [2] ولذلك فإن الحديث يعطينا صورة حية وراقية للعلاقة بين الأباء والأبناء تقوم على الود والمحبة والاحترام تتجسد في إجابة رسول الله لفاطمة بدأها بأى بنية ألست تحبين ما أحب وفي الحديث جانب إنسانى آخر وهو أن ما في القلوب يعجز الإنسان أن يقننه أو يتحكم فيه وأن التسوية تكون في الأعمال المنظورة المتعارف عليها فحسب.

والاستفهام فى قوله لفاطمة" ألست تحبين ما أحب" وهو الاستفهام الداخل على النفي مثل قول الشاعر "ألستم خير من ركب المطايا" من الاستفهام التقريرى الذى يكون المقصود فيه تقرير المخاطب بما يعلمه من مضمون الحكم وكثير من البلاغيين يعده من باب الإنكار الذى يبطل النفي

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، جـ١٥/٢٠٥.

(٢) السابق ولهذا كان يطاف به -صلى الله عليه وسلم- في مرضه عليهن حتى يضعف فأستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة فأذن له قولها.

فيعود بالأسلوب إلى إثبات، فقوله تعالى" ألم نشرح لك صدرك" أى شرحنا لك صدرك...."[1]. ولذلك جاء استفهام الرسول -صلى الله عليه وسلم- "ألست تحبين ما أحب" استفهام تقريرى يفيد التحقيق والتأكيد والرجاء لفاطمة للتضامن معه فى موقفه من إيثار عائشة بمحبته دون غيرها.

٣- الاستفهام الحقيقى :

ورد الاستفهام الحقيقى فى الحديث النبوى كثيراً، وهو الأصل فى الاستفهام ويراد به كما قال ابن قيم الجوزية: "أن يستفهم عن شئ لم يتقدم له به علم حتى يحصل له به علم وهذا هو أصل الباب"[2]. بتتبع الاستفهام فى الحديث النبوى لحظنا أن الاستفهام الحقيقى يكثر فى التحاور العقائدى أو الفرائض أو الأحكام الشرعية لأخبارهم بها أو شرحها لهم، ومثال ذلك ما رواه أبو ذر قال: **"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وضرب فخذى كيف أنت إذا بقيت فى قوم يؤخرون الصلاة عن وقتها؟ قال: ما تأمر؟ قال: صلى الصلاة لوقتها ثم أذهب لحاجتك فإن أقيمت الصلاة وأنت فى المسجد فصل"**[3].

بدأ النبى صلى الله عليه وسلم- الحديث بالاستفهام: "كيف أنت إذا بقيت فى قوم يؤخرون الصلاة عن وقتها؟" وهو سؤال شرعى يقتضى الإجابة من المسئول وقد استعمل أداة الاستفهام كيف وهى كما قال ابن فارس: "للسؤال عن الحال؛ يقول: كيف أنت أى بأى حال أنت؟ ولها ثلاث أوجه: أحدهما سؤال محض عن حال تقول كيف زيد؟ والوجه الآخر حال لا

(١) د.حسني عبد الجليل: أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، ص١٠١.

(٢) ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوق، ص

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، جـ٥، ١٤٩.

سؤال معه كقولك لأكرمنك كيف كنت، أى على أى حال أنت؟ والوجه الثالث: كيف بمعنى التعجب[١].

وما فى الحديث؛ السؤال عن ما هو الحال عندما تكون فى قوم يؤخرون الصلاة عن وقتها؟ وهو استفهام حقيقى ولذلك قال الصحابى ما تأمر؟ أى ما التصرف الصحيح الذى يجب أن التزم به، فكان قول الرسول - صلى الله عليه وسلم- هو التوجيه الشرعى الذى يجب أن يلتزم به الصحابى وكل مسلم. ويشير النووى إلى مقصد الرسول صلى الله عليه وسلم من ضربه لفخذ الصحابى قائلاً: "هو للتنبيه وجمع الذهن على ما يقوله له"[٢]. فهو مدرك لأهمية ما يتمسك به الرواة من سرد كل ما يتعلق بسياق الحديث ويرى أنه وثيق الصلة بمضمونه وما جاء فيه من أحكام.

ومن الاستفهام ما يجمع بين الاستفهام الحقيقى والمجازى ويستفاد منه حكم شرعى وتوجيه دينى وذلك مثل ما جاء عن ابن بُجيْنة قال:

"أقيمت صلاة الصبح فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يصلى والمؤذن يقيم فقال: أتصلى الصبح أربعا؟""[٣].

قال النووى: أتصلى الصبح أربعاً، استفهام إنكار ومعناه أنه لا يشرع بعد الإقامة للصبح إلا الفريضة فإذا صلى ركعتين نافلة بعد الإقامة ثم صلى معهم الفريضة صار فى معنى من صلى الصبح أربعاً لأنه صلى بعد الإقامة أربعاً[٤].

---

[١] أحمد بن فارس، الصاحبى، ص٢٤٣، ٢٤٤.

[٢] صحيح مسلم بشرح النووى، جـ٥، ص١٤٩.

[٣] صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، جـ٥، ص٢٣٣.

[٤] المرجع السابق.

فالاستفهام جمع بين الاستفهام الحقيقى والمجازى لأن هذا الرجل يصلى بصلاة عدد ركعاتها غير صحيح، فإن الاستفهام يتضمن الإنكار والتوبيخ له وليس المقصود بالحقيقى هنا أنه يطلب به جواباً بل معناه أن الاستفهام باق مع المعنى الذى تتضمنه جملة الاستفهام المجازى، حيث لا يخرج عن الاستفهام إلى الخبر، ولا تفارق الاستفهام لتضمنها ذلك المعنى الذى يستشف منها[1] ولذلك وضح النووى أنه يستفاد من هذا الحديث أن الحكمة فيه أن يتفرغ للفريضة من أولها فيشرع فيها عقب شروع الإمام وإذا اشتغل بنافلة فاته الإحرام مع الإمام وفاته بعض مكملات الفريضة فالفريضة أولى بالمحافظة على إكمالها.

ومن أحكام الحج التى أفاد منها المخاطبين عن طريق الاستفهام الحقيقى ما رواه أنس رضى الله عنه **"أن علياً قدم من اليمن فقال له النبى صلى الله عليه وسلم بِمَ أهللت؟ فقال أهللت بإهلال النبى صلى الله عليه وسلم قال لولا أن معى الهدى لأحللت"**[2].

فالاستفهام من الرسول لعلى بن أبى طالب بِمَ أهللت؟ استفهام حقيقى وفيه بيان لأحكام الحج والعمرة والجمع بينهما فى الإهلال فهو يسأله هل هو أهل بالحج فقط أم بالحج والعمرة ومن المعروف (أن الإهلال المقصود به إن المحرم يرفع صوته عند الإحرام بنيته بالحج أو الحج والعمرة) ويوضح ذلك ما جاء عن عائشة رضى الله عنها قالت: **"خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - عام حجة الوداع، فمنا من أهلَّ بعمرة، ومنا من أهلَّ**

---

(١) د.حسنى عبد الجليل، أساليب الاستفهام فى الشعر الجاهلى، ص١٩٦

(٢) صحيح مسلم، جـ٥، ص٢٢٣.

بعمرة، فحل عند قدومه، ومنا من أهل بالحج، وأهلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحج"[1].

وقد يحدث موقف ما أمام النبى صلى الله عليه وسلم يتطلب أن يلفت نظرهم إلى مشروعيته ويصحح لهم ما قد يكون غمض أو التبس عليهم بما يظن أنهم يجهلونه كما فى الحديث الذى رواه ابن عباس **"أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد شاة ميتة أعطيتها مولاة لميمونة من الصدقة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هَلاَّ أنتفعتم بجلدها؟ قالوا: إنها ميتة فقال: إنما حُرِم أكلها"**[2].

الاستفهام "هلا أنتفعتم بجلدها؟" واستعمال أداة الاستفهام هلاَّ فى الحديث النبوى قليل وهى من حروف التخصيص "كألا" تدخل على الأفعال الماضية أو المضارعة فتقول: هلا قمت، وهلا قعدت، وهلا تقوم، وهلا تقعد[3].

وهو استفهام حقيقى تضمن معنى التخصيص وفيه توجيه نظر المخاطبين إلى حل الانتفاع بجلد الشاة الميتة. وإنما يكون التحريم على أكل لحمها فقط لقوله تعالى: (**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ**)[4]. وليكون قاعدة عامة يستفيد منها المسلمون فى مثل هذه الأحوال.

وهذا حديث أخير فى هذه المجموعة يستفاد منه حكماً شرعياً هاماً فى كفارة الصيام فى نهار رمضان.

---

(1) السيد سابق، فقه السنة، دار الفتح للإعلام العربى، ١٩٩٧، ص٤٦٥.

(2) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الحج، باب جواز التمتع فى الحج والقران، جـ٨، ص٢٣٣.

(3) المالقى، رصف المبانى، تحقيق: أحمد الخراط، ص١٩٤.

(4) سورة البقرة ١٧٣.

روى أبى هريرة "أن رجلاً جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم- فقال: هلكت يا رسول الله. قال: وما أهلكك؟ قال: وقعت على امرأتى فى رمضان. قال: هل تجد ما تعتق رقبة؟ قال: لا. قال: فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟ قال: لا. قال: فهل تجد ما تطعم ستين مسكينا؟ قال: لا. قال: ثم جلس فأتى النبى صلى الله عليه وسلم بعرق فيه تمر، فقال: تصدق بهذا فقال: أفقرَ منّا فما بين لابتَيْها[1] أهل بيت أحوج إليه منا فضحك النبى -صلى الله عليه وسلم- حتى بدت أنيابه. ثم قال اذهب فأطعمه أهلك"[2].

وفى رواية أخرى "أتى رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد فى رمضان فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم- احترقت، احترقت. فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما شأنه؟ فقال: أصبت أهلى. قال: تصدق. فقال: والله يا نبى الله مالى شئ وما أقدر عليه، قال: اجلس، فجلس فبينا هو على ذلك أقبل رجل يسوق حمار عليه طعام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، أين المحترق آنفا؟ فقام الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم. تصدق بهذا. فقال يا رسول الله: أغيَرنا فوالله إنا لجياع ما لنا شئ. قال: فكلوه"[3].

الحديثان يتضمنانمسألة واحدة وهو سؤال الرجل لرسولنا الكريم فقال: فى الحديث الأول هلكت، وفى الحديث الثانى احترقت وكلا منها كناية عن مباشرته لزوجته فى نهار رمضان وما يترتب على ذلك من أثم عظيم

---

(1) فما بين لابتيها: قال النووى هما الحركان والمدينة بين حرتين، والحرة الأرض الملبسة حجارة سوداء ويقال لابة ولوبة ونوبة بالنون.. ومنه قيل الأسود نوبى ونوبى، صحيح مسلم بشرح النووى، جـ٧، ٢٢٦.

(2) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الصيام جـ٧، ص٢٢٤.

(3) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الصيام، جـ٧، ص٢٢٥.

يؤدى إلى هلاكه وتعرضه لعذاب الآخرة فعبر عن الأول بالهلاك، وعبر فى الحديث الثانى بالاحتراق على أن الاحتراق.

وكما ترى الحديث يقوم على الحوار بين الرسول صلى الله عليه وسلم والرجل وهو استفهام حقيقى يهدف إلى دفع لغة الحوار وتصاعد الأحداث وإيضاحها ولذلك توالت لغة الحوار القائمة على السؤال من النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرجل هل تجد ما تعتق رقبة؟ هل تستطع أن تصوم؟ هل تجد ما تطعم به ستين مسكينا؟ ثم كان الاستفهام البلاغى ما أهلكك؟ وسؤال الرجل لرسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. أفقر منا؟ وتقديره أتجد أفقر منا أو أتعطى أفقر منا؟

ويهدف من قوله" أفقر منا" أنه لا يوجد من هو أحق بهذه الصدقة منا لفقرنا الشديد وكنى عن هذا الفقر الشديد بقوله فما بين لابتيها أهل بيت أحوج إليه منا (أى أحوج لعرق التمر منا).

وفى الحديث الثانى أكثر من استفهام. الاستفهام الأول: من الرسول -صلى الله عليه وسلم- "أين المحترق آنفا؟" وهو استفهام حقيقى ويحمل فى طياته التقريع والتبكيت للرجل. ومعنى قولنا أنه جمع بين الاستفهام الحقيقى والمجازى أى أن الاستفهام باقى مع المعنى الذى تتضمنه جملة الاستفهام المجازى.

أما الاستفهام الثانى: فهو قول الرجل" أغيرنا فوالله إنا لجياع ما لنا شئ"؟ بغرض رجاء واستعطاف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقد ود الرجل لو أن هذا الطعام يكون من نصيبه هو وأسرته. فمنحنه له الرسول -صلى الله عليه وسلم- وبقيت الكفارة ديناً عليه كما أشار إلى ذلك النووى.

٤- الاستفهام بدون أداة :

عد النحاة ما ورد من نصوص فصيحة تفيد الاستفهام دون أداة أنها من قبيل الاستفهام بأداة محذوفة، وقدروا أن الهمزة وحدها من أدوات الاستفهام هى التى تحذف، فتقدر من ثم في سياق الكلام.

يقول ابن هشام "الألف أصل أدوات الاستفهام ولهذا خصت بأحكام أحدها جواز حذفها سواء تقدمت على أم كقول عمر بن أبى ربيعة:

فوالله ما أدرى وإن كنت داريا

بسبع رمين الجمر أم بثمان

أراد أم بسبع، أو لم يتقدمها (أى لم تتقدمها أم) كما في قول البيت:

"طربت وما شوقا إلى البيض أطرب

ولا لعبا منى وذو الشيب يلعب

أراد أو ذو الشيب يلعب[١]".

ولذلك فإنه "يجوز حذف الهمزة إذا فهم المعنى ودل عليه قرينة الكلام"[٢].

وجاء حديث أبلغ العرب سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- بشواهد عديدة للاستفهام بأداة محذوفة تفهم من السياق وتفصح عن بلاغة النص وإيحاءات الموقف المحيط به ومنه ما جاء في حديثه -صلى الله عليه وسلم- مع جابر بن عبد الله فيما رواه جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال: **"هلك أبى وترك سبع بنات - أو تسع بنات - فتزوجت امرأة ثيبا: فقال لى رسول**

(١) ابن هشام، مغنى اللبيب، جـ١/١١، ١٢.

(٢) رصف المبانى في شرح حروف المعانى، المالقي، ص١٣٥.

الله -صلى الله عليه وسلم- تزوجت يا جابر - فقلت: نعم فقال: بكراً أم ثيباً؟ قلت: بل ثيباً. قال: فلا جارية تلاعبها وتلاعبك، وتضاحكها وتضاحكك"[1].

ففي قوله بكراً أم ثيباً؟ جاء الاستفهام بهمزة محذوفة مقدرة أبكر.

ولذا جاء بعدها أم المنقطعة، والقرينة الدالة على الاستفهام (جواب جابر: بل ثيباً.

ومن شواهد الاستفهام المحذوفة الأداة ولم يتبعها أم المنقطعة مع وجود قرينة دالة على الاستفهام وهى إجابة السامع بنعم أولا).

ما رواه ابن عباس عن جويرية أن النبى -صلى الله عليه وسلم- **"خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهى في مسجدها**[2] **ثم رجع بعد أن أضحى، وهى جالسة، فقال: مازلت على الحال التى فارقتك عليها؟ قالت: نعم. قال النبى -صلى الله عليه وسلم- لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته"**[3].

الاستفهام في قوله عليه السلام: "مازلت على الحال التى فارقتك عليها"؟ وهنا حذف همزة الاستفهام بتقديرها "أمازلت" قال المالقي: "ويجوز حذف هذه الهمزة إذا فهم المعنى ودل عليه قرينة الكلام"[4]. وقرينة الكلام في الحديث إجابتها "بنعم". والاستفهام تقريرى أى أمازلت على الحالة التى

---

(١) صحيح مسلم، ١٠٨٧/٢، -فتح البارى شرح صحيح البخارى، ٥١٣/٩.

(٢) مسجدها: موضح صلاتها.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب الذكر والدعاء، جـ١٧/٧١، ٧٢.

(٤) أحمد عبد القوى المالقي، رصف المبانى في شرح حروف المعانى، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٩٨٥، ص١٣٥.

تركتك عليها وهي حالة الصلاة والعبادة ويفيد التحقيق والتأكيد من رغبتها في مواصلة العبادة ولذلك زودها عليه الصلاة والسلام بالتسابيح "سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته".

وتكرر الاستفهام في حديثه -صلى الله عليه وسلم- بدون أداة مع تقدير همزة استفهام محذوفة. ومنها ما رواه أبو بردة عن أبيه قال: **"صلينا المغرب مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ثم قلنا لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء قال: فجلسنا فخرج علينا فقال: مازلتم ههنا؟ قلنا يا رسول الله صلينا معك المغرب، ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال: أحسنتم أو أصبتم..."**[1] الاستفهام المحذوف الأداة المقدرة مازلتم ههنا، قدرت الهمزة أمازلتم ههنا؟ وقد فهم الاستفهام من سياق الحوار بين رسولنا والصحابة في الحديث.

وقد يرد في حديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- بعض الاستفهام محذوف الأداة، ولكن يمكن أن يقدر بأداة غير الهمزة كما جاء في حديث عائشة -رضي الله عنها- في حديث طويل عن الاحتفال بالعيد: **"كان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب فإما سألت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وإما قال تشتهين تنظرين؟ فقلت: نعم. فأقامني وراءه، خدي على خده وهو يقول: دونكم يا بني أرفده[2]، حتى إذا مللت. قال: حسبك؟ قلت: نعم، قال: فاذهبي"**[3].

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة، جـ١٦، ٨٣.

(٢) قال النووي: دونكم يا بني أرفدة: يقال هو لقب الحبشة، ولفظة دونكم من ألفاظ الإغراء وحذف المغري به تقديره عليكم بهذا اللعب الذي أنتم فيه.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب صلاة العيدين، جـ٦/١٨٥.

ففى هذا الحديث يوجد أكثر من استفهام بدون أداة في هذه القصة التى تحكى الاحتفال بيوم العيد.

الاستفهام الأول تشتهين تنظرين؟ هو استفهام بدون أداة ولكن السياق يستنتج منه أن تشتهين استفهام من رسولنا -صلى الله عليه وسلم- للسيدة عائشة أى هل تشتهين النظر إلى هذا الاحتفال؟ والقرينة الدالة على أنه استفهام محذوف الأداة قرينة لفظية وهى إجابتها: بنعم، والسؤال تشتهين فيه إيحاء إلى تشوقها للنظر والمشاهدة لأن اشتهاء النظر يجمع بين إرادة الشئ وشدة التعلق به والاستفهام يجمع بين الاستفهام حقيقى في سياق التحاور بينه وبينها.

والاستفهام الثانى هو في قوله عليه السلام: حسبك، قال النووى: هو استفهام بهمزة مقدرة محذوفة بدليل قولها: نعم تقديره هل يكفيك هذا القدر، قالت: نعم، وهو استفهام حقيقى وجزء أصيل من بنية الحديث ساهم في عرض الأحداث وتدفقها في وضوح ويسر والحديث يعرض لموقف إنسانى رائع ونموذج راقياً لعلاقة الرجل بزوجه قال النووى: "في هذا الحديث بيان ما كان عليه -صلى الله عليه وسلم- من الرأفة والرحمة وحسن الخلق والمعاشرة بالمعروف مع الأهل والأزواج وغيرهم"[1]. ومن الملاحظ أن النووى لم يشر إلى الاستفهام إلا في مواضع قليلة جداً منها هذا الحديث.

ويؤكد ما أشرنا إليه من احتمال تقدير أداة أخرى غير الهمزة في الاستفهام ما ورد في رواية ابن عباس عن خطبة رسول الله إلى نساء المسلمين بعد صلاة الفطر يدعوهم للتصدق قال"... **حتى جاء النساء ومعه بلال فقال: يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله**

(1) صحيح مسلم بشرح النووى، جـ٦/١٨٥.

شبينا[١] فتلا هذه الآية حتى فرغ منها، ثم قال حين فرغ: أنتن على ذلك؟ فقالت امرأة واحدة لم يجبه غيرها منهن، نعم يا نبى الله، لا يدرى حينئذ من هى قال: فتصدقن، فبسط بلال ثوبه، ثم قال: هلمَّ فدى لكن أبى وأمى فجعلن يلقين الفتخ والخواتم في ثوب بلال"[٢].

وسؤال الرسول -صلى الله عليه وسلم- للمؤمنات أنتن على ذلك؟ يفهم منه أن هناك أداة استفهام محذوفة وتقديرها هل أنتن على ذلك العهد؟ وكانت إجابة إحداهن نعم يا نبى الله قرينة لفظية دالة على الاستفهام وهو استفهام حقيقى وإن تضمن معنى التذكير والتنبيه أيضاً بضرورة التصدق مما أفاء الله عليهن من نعمة.

---

(١) الممتحنة الآية ١٢.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووى، كتاب صلاة العيدين، ٦/١٧١.

المراجـــع

١- ابن الأثير: ضياء الدين نصر الله بن محمد، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، المطبعة العصرية، ١٩٩٥م.

٢- ابن الأثير: المبارك بن محمد، النهاية في غريب الحديث والأثر، لبنان، بيروت، المكتبة العلمية.

٣- الأربلي: علاء الدين، جواهر الأدب في معرفة كلام العرب، تحقيق: حامد أحمد نيل، ط١٩٨٤.

٤- الأصفهانى: الراغب، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد خليل غيتانى، بيروت، دار المعرفة، ط٣.

٥- ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم، مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن القاسم، المغرب، مكتبة المعارف.

٦- الجاحظ: عمرو بن بحر، البيان والتبين، تحقيق: درويش جويدى، بيروت، المكتبة العصرية، ط٢، ٢٠٠٠.

٧- الجرجانى: عبد القاهر، قراءة وتعليق: محمود محمد شاكر، مكتبة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٨- ابن جني: أبو الفتح عثمان، الخصائص، ت: محمد على النجار، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، التراث، ط ١٩٩٤.

٩- حسين، محمد الخضر، دراسات في العربية وتاريخها، دار الفتح، ١٩٦١.

١٠- خفاجي: محمد عبد المنعم، الحياة الأدبيـة فى عصر صدر الإسلام دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ط٣، ١٩٨٤م.

١١- ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، مطبعة الأزهر، مصر، ١٩٣٠م.

١٢- الرافعى: مصطفى صادق، إعجاز القرآن والبلاغـة النبويـة، تحقيق: عبد الله المنياوى، مصر، مكتبة الإيمان، ط أولى، ١٩٩٧.

١٣- ابن رشيق: أبو على الحسن العمدة، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط٣، ١٩٦٣م.

١٤- الزركشى: محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط أولى، ١٩٨٨.

١٥- الزمخشرى: جار الله محمود بن عمر، أساس البلاغة، مصر، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الزخائر، ٢٠٠٣.

١٦- سابق: السيد، فقه السنة، دار الفتح للإعلام العربى، ١٩٩٧

١٧- السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر، الإتقان في علوم القرآن، مصر، دار مصر للطباعة (السحار).

- شرح عقود الجمان في علوم المعانى والبيان، مصر، دار إحياء الكتب العربية، الحلبى.

١٨- الصباغ: محمد بن لطفى، الحديث النبوى، بيروت، المكتب الإسلامى، ط٦، ١٩٩٠.

١٩- عبد الجليل: حسنى يوسف، أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلى، مؤسسة المختار، دار المعالم الثقافية، ط أولى، ٢٠٠١م.

٢٠- عتيق: عبد العزيز، علم المعانى، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٥.

٢١- العسقلانى: أحمد بن على بن حجر، فتح البارى شرح صحيح البخارى، تحقيق ومراجعة: عبد العزيز بن باز، محمد فؤاد عبد الباقى، دار المنار، ط أولى، ١٩٩٩.

٢٢- العلوى: يحيى بن حمزة، الطراز المتضمن لإسرار البلاغة، مصر، مطبعة المقتطف، ١٩١٤م.

٢٣- عودة: خليل أبو عودة، بناء الجملة في الحديث النبوى في الصحيحين، الأردن، دار البشير، ط أولى، ١٩٩٤.

٢٤- ابن فارس: أحمد، الصحابى في فقه اللغة، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبى، ١٩٩٧.

٢٥- الفيروز ابادى: مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧.

٢٦- القرطاجنى: حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن خوخة، تونس، ١٩٦٦م.

٢٧- القرطبى: محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، مصر، مطبعة دار الكتب المصرية، ط٣، ١٩٦٧م.

٢٨- القزوينى: جلال الدين محمد بن عبد الرحمن، الإيضاح، لبنان، دار الجيل.

٢٩- ابن القيم: شمس الدين أبى عبد الله محمد.

- الفوائد المشوق إلى علوم القرآن، مصر، مطبعة السعادة، ط أولى ١٣٢٧هـ.

- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقى، مطبعة مصطفى الحلبى، عام ١٩٣٩م.

٣٠- المالقى: أحمد عبد القوى: رصف المبانى في شرح حروف المعانى، تحقيق: أحمد محمد الخراط، دمشق، دار القلم، ط، ١٩٨٥.

٣١- ابن مالك: جمال الدين محمد عبد الله، شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقى، مكتبة العروبة.

٣٢- مطلوب: أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها العراق، المجمع العلمى العراقى، ١٩٨٣.

٣٣- أبو موسى: محمد محمد، دلالات التراكيب، مكتبة وهبة، جـ٣، ٢٠٠٤م.

٣٤- ابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم بن على، لسان العرب، مصر، دار الحديث، ٢٠٠٣.

٣٥- نصار: حسين، فواتح سور القرآن، القاهرة، مطبعة الخانجى، طبعة أولى، ١٩٩٩.

٣٦- النووى: يحيى بن شرف بن مرعى بن حزام النووى، صحيح مسلم بشرح النووى، ط أولى، ١٩٢٩.

٣٧- الهروى: على بن محمد، الأزهية في علم الحروف، تحقيق: عبد المعين الملوحى، دمشق، مجمع اللغة العربية، ١٩٧١.

٣٨- ابن هشام: جمال الدين بن هشام الأنصارى، مغنى اللبيب، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبى.